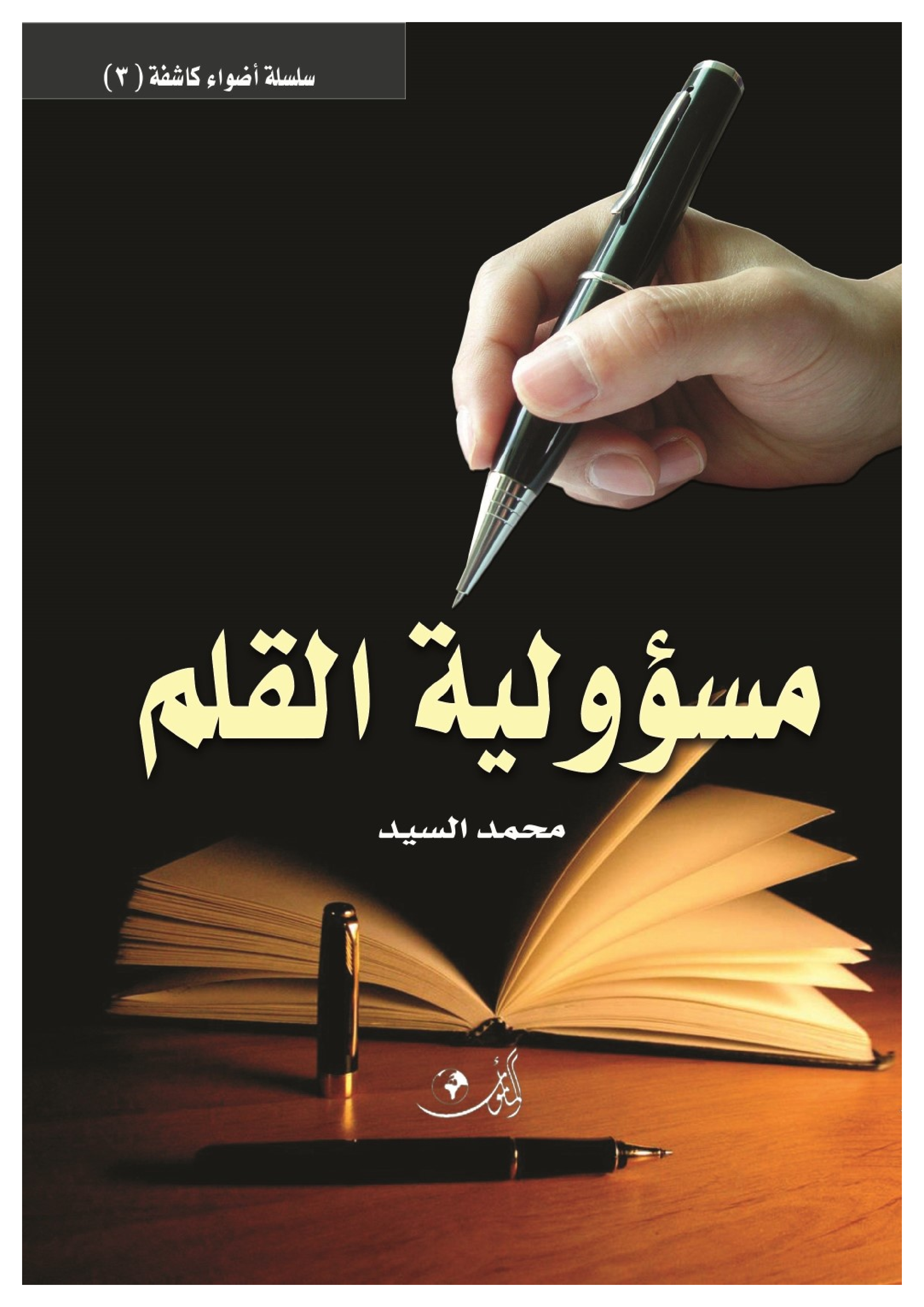
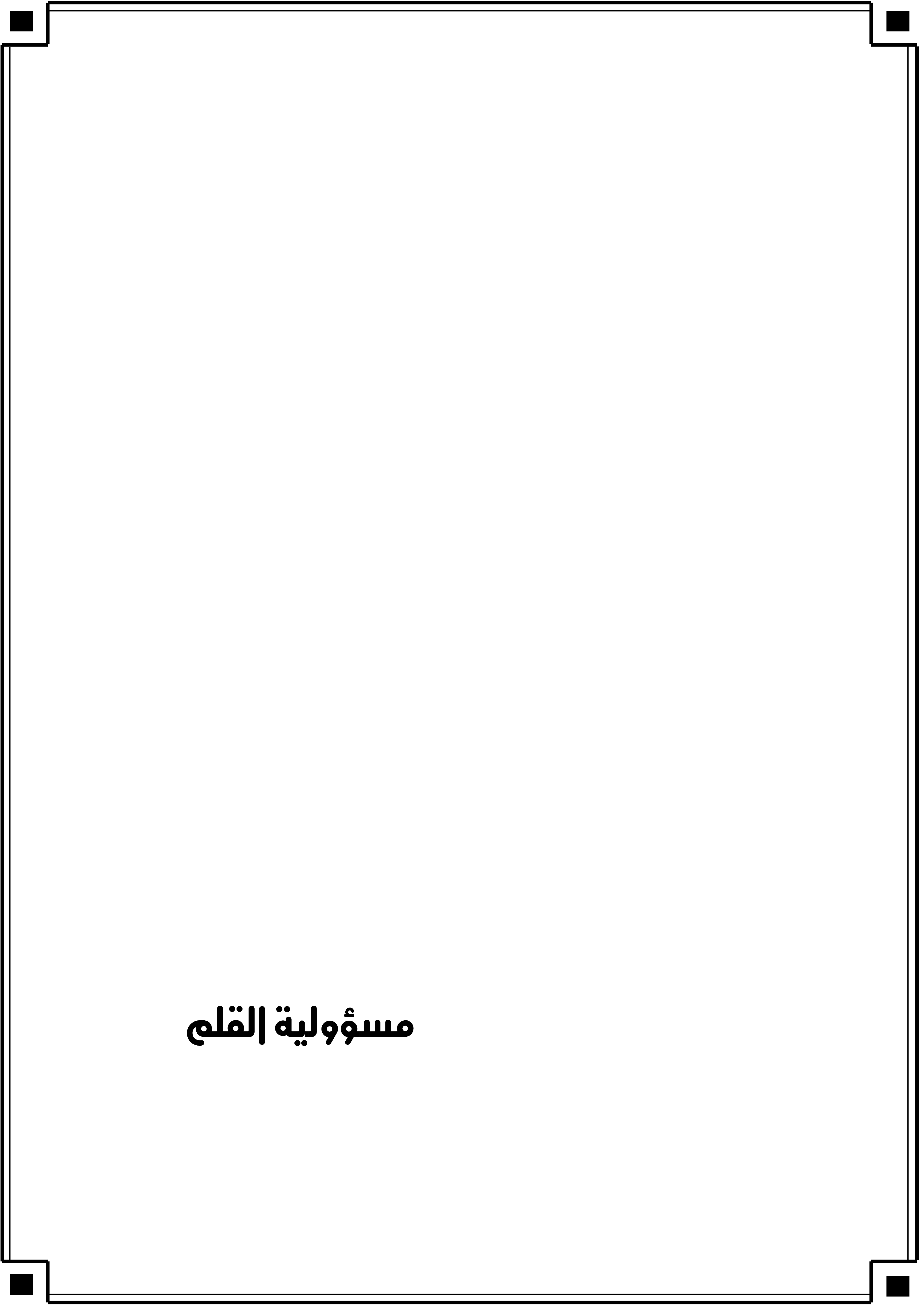


سلسلة أضواء كاشفة (٣)
مسؤولية القلم
محمد السيد



مسؤولية القلم

الطبعة الاولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/٣/١١٤١)

306
السيد، محمد حمدان
مسؤولية القلم/ محمد حمدان السيد._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع ، ٢٠١٤.
(١٥٦) ص
ر.أ: (٢٠١٤/٣/١١٤١).
الواصفات: / الثقافة // المعلومات/

❖ **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**

ردمك ISBN 978 – 995 - 77 – 307 - 6

المأمون
دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

سلسلة أضواء كاشفة (٣)

مسؤولية القلم

محمد السيد


دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء



إلى كل قلم حرّ..

إلى كل لسان حرّ

۞ ۞ ۞

إلى كل قلم التزم بالحق قولاً وعملاً

إلى كل لسان التصقت حركته بالحقيقة

۞ ۞ ۞

إلى كل صاحب رأي نزيه

إلى كل من يضحي بالزائل من هذه الدنيا

مدافعاً عن الحق والعدل والإصلاح

۞ ۞ ۞

إلى كل أولئك:

أهدي هذه الكلمات المتواضعة

المؤلف



الفهرس



المبحث الأول

المثقفون والتنوع والمرجعية، وفيه مواضيع

المبحث الثاني

الأقلام ومفارقة الحق، وفيه مواضيع

المبحث الثالث

البناء على التخرص والظنّ، وفيه مواضيع

المبحث الرابع

التكتم على الحق، وفيه مواضيع:

المبحث الخامس

بتزوير الكلام يهدمون الحصون، وفيه مواضيع:

المبحث السادس

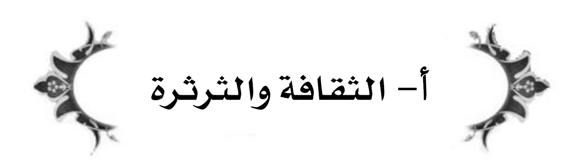
عن باعة الأقلام والكلام، وفيه مواضيع

المبحث السابع

العلم والقلم الصادق، وفيه مواضيع

المبحث الأول

المثقفون والتنوع والمرجعية وفيه :



أ- الثقافة والثرثرة

نقل عن سقراط قوله: «ما بنته الأقلام لم تطمع في دروسه الأيام».

وقديماً قالت العرب: قيدوا العلم بالكتابة.. وأفضل من هذين القولين وآكد وأفحم في الإقناع: القسم الذي أقسمه رب العزة بقوله جلَّ من قائل: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

إن القلم.. وما يسطر على القراطيس، وإنها الكتابة بمعناها الشامل المتسع للمفهوم الثقافي، الذي يشمل كل أنواع الأنشطة الإنسانية، من فكر وأدب وفن، وعلم، وتقنية، وتاريخ، وجغرافية، وإعلام، واقتصاد، وسياسة، وعلى رأس كل ذلك وفي مقدمة الدين وما يضم من عقيدة وشريعة ونظام حياة.

مقدمته

وإذن.. فهي المسؤولية الخطيرة، الملقاة بثقلها وخطرها على كواهل الأقلام؛ التي تكتب في كل نوع أو جنس من أجناس الثقافة التي ذكرنا فروعها آنفاً، بحيث تسعى هذه المسؤولية إلى إنتاج مجتمع قادر على مواجهة الحياة العاجلة بمنظومة فكرية وعملية، تدفع بالعطاء المجتمعي إلى مصاف الرقي الإنساني؛ سلوكياً وتطورياً، بحيث تخرج الأقلام على تنوعها في الأخذ بالأجناس الأدبية من مشكاة واحدة، تتلون فيها الفروع بألوان مختلفة، لكنها في المآل، تخدم بمجموعها المتنوع الغني المنظومة الفكرية والعملية الواحدة، فتكون في التشبيه والتمثيل اللذين يقربان الصورة للقارئ الكريم، مثل قطعة الماس الواحدة، تعطيك من كل وجه لوناً

مختلفاً، لكنها في النتيجة تشكل بمجموعها جمال القطعة ومعناها وقيمتها الغالية المطلوبة.

إن الذي جعلني أورد هذا المعنى ما أراه ويراه كل مراقب للساحة الثقافية العربية والإسلامية، من شتات التوجهات، وتشتت الأفكار، وتنازع الأهداف، وتنابذ الرؤى، وسيادة المصالح الخاصة الأنانية، وتفضيلها على المصلحة العامة في معظم ما يكتب وما يدبج وما يفسح له المجال الأوسع في ساحات النشر والإعلام.

وقد يقول قائل: إن هذا تنوع محمود مثرٍ ومغنٍ، وهو مطلوب من أجل بعث الحياة في القامة الثقافية، ولازم لجعلها جلية الحضور، مخضرة الأغصان، قوية النبض، باسمة الثغر، راسخة التمكين، ظافرة المواكب.

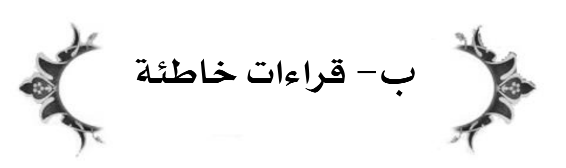
لكنني حيال هذا الإدعاء أقول: إن هذا التنظير صحيح ومنطقي، غير أني استدرك عليه بالسؤال الآتي:

هل ما نشاهده تنوع محمود فعلاً.. فنقربه، ونرضاه، وتطمئن قلوبنا وعقولنا لعطائه..؟

لا.. أبداً.. إن ما نراه، وما نقرؤه، وما يسطر في شتى مجالات الثقافة في مفهومها الواسع، ليس في غالبيته سوى شتات أهواء وأفكار، لا ترجع إلى أرومة واحدة، ولا تتحاكم في المآل إلى مرجعية أصيلة، تخرج من مشكاتها كل التوجهات، التي تنوع وتثري السبل والحلول، وتطرح الفكرة، والفكرة الأخرى، وكلاهما يقترح الأجدى للوصول إلى أفضل حالات التنفيذ والالتزام بالخصوصية الحياتية والعقدية للأمة..

لقد اختطفنا الآخر، واتنزع أقلامنا من أغمادها الأصيلة أو كاد، ووضعها –

يااللأسف- تحت سطوره، وفي مستوى النقل والتقليد والتبشير بما يريده ويرضاه لنا من تبعية، تجعل ساحتنا الثقافية ساحة حرب تطحننا ليل نهار، نسي فيها مدعو الثقافة، أو تناسوا أن حرباً كهذه ليس فيها منتصر غير الآخر، وأن جميع المتبارين في الساحة – من غير الملتزمين بخصوصيتهم- إنما هم نسخ مشوهة عن الأصل، لا تستطيع أن تبدع، ولا أن تبني تقدماً أو تطوراً خصوصيين، يشكلان إضافة حضارية، تنقذنا من وهاد العجز والتخلف والتبعية، وتصنع لحياتنا الحضارية قيمة ذات معنى في قواميس الآخرين، كما لا تستطيع أن تخرج كاتبينا ومثقفينا من الأضمومة التي أبغضها رسول الله ﷺ بقوله: «**وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**».. رواه الترمذي وقال حديث حسن وأخيراً أقول: إنها ثرثرة، تضيع الوقت، وتضلل الجمع، وتفتح أبواب الفتن والكراهية.. وهي أبعد ما تكون عن الثقافة.



ب- قراءات خاطئة

ومن النسخ المبتعدة عن الأصل، الراسخة في الثرثرة، كتابات أصحاب القراءات الخاطئة للأحداث، إذ تتيح لنا تلك الكتابات أن نبدي عليها ما يلي:

١- مقدمة:

القائمُ على ثغرةٍ من ثغر هذه الأمة، تلتفُّ حول عنقه أمانة النصح المبين، فلا ينبغي له أن يلعب بالعقول، ويتاجر بالفهوم، ويذهب بعيداً بالخواصر الرخوة، ليضمها إلى التحليل العقيم للأحداث، ليغلّف أبعادها بفيافي الفكر الموحش.

إنَّ من يفعل ذلك بأمته يرتكب الضغينة المدفوعة الثمن، وهذا الثمن يمثل الأشياء الرخيصة في هذه الدنيا، لأنها تُغيّب الشموس خلف الأطماع الدنيئة، وتجفف الينابيع الثرة كيما يسفّ الناس التراب، ويلتهم الفاعل الجثث النتنة، مستقبلاً آمالاً غامضة، تسكن أجساداً معتمة وقلوباً واجفة، ترعد بمراودات التبعية الضالة. وويلك أيهذا الفاعل.. فمن ذا الذي يستطيع أن يقف لقول ربه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ولا يخرُّ صعقاً، إن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان؛ فإن لم يكن لديه ذلك المثقال فهو لا يغادر الحُفَر أبداً ليعلو وجه الأرض، بل هو ممن وصفهم رب العزة بقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. أو ممن وصفهم رسول الله ﷺ بقوله: «**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**» رواه أبو يعلى وبإسناد صحيح. إنَّ الأمانة التي تطوق عنق كل قائمٍ على ثغر- وأخصُّ بالذكر هنا من هو قائم على

ثغر الفكر والثقافة والإعلام- هي حلية غالية، لا تستطيع شرفة من شرفات بلادنا أن تتحاشاها. فإن لم يستطع حامل هذه الأمانة إلا أن يقول، فليأتمر بأمر المعصوم ﷺ، إذ قال: «**مَنْ كانَ يُؤمِنُ بالله واليوم الآخر فلْيَقُل خيراً أو لِيَصمت**» متفق عليه.

كلُّ السطور الآنفة هي تقدمة بين يدي الآتي من الكلمات وهو قليل، فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ.

٢- تأصيل:

فيا لهذا الذي تطوق عنقه الأمانة الفكرية الثقافية الإعلامية، ثم يحمل سكيناً غادرة، فيثير لججاً من الإجرام بحق الحقيقة، مع أنه لا يملك إلا مجزرة كذبٍ ونفاق، ولربما التبعية والتقليد الأعمى! فها هو كليلٍ معتمٍ يَنْقَضُّ على الضياء، يحاول طمس معالم الرؤية السديدة؛ إذ يبحث عن أسباب ومسوغات زائفة للنهوض الإسلامي، فتارة يجعل الفقر والبطالة سبباً في هذا النهوض، فإذا وجد أن الأتباع والناهضين فيهم الأثرياء الأتقياء، أعجزه المشهد، فيتحول إلى القول المتهافت: إنَّ ضعف الاتجاه الآخر هو السبب، أو أنَّ الحكام يمالئون ويدعمون (أجندة) هذا النهوض الإسلامي مباشرة، أو عن طريق محاصرتهم للاتجاهات الأخرى بالديكتاتورية والقمع، فإذا أعيته الحيلة، ووجد أنَّ تيار النهوض الإسلامي لم يستقبل في الساحة إلا بتيارات قومية ويسارية وليبرالية مدعومة محلياً ودولياً، ومدججة بوسائل إعلامية ومؤسسات ثقافية أُمِّمت لحسابهم، وجُهّزت بالمال والعتاد، لتكون في أقصى جاهزية وأعتى إمكانية بدون تقتير ولا تردد. ذهب في تزييف الأسباب مذاهب شتى، هو وجميع هذا الاتجاه. إنهم يبحثون في جعبتهم دون كلل عن قول أسود، يقلع عشب الحضارة، ويشرع الأبواب للغزو الأحقد، لكنهم لم يدخلوا يوماً قلب الإنسان. قد تكون كلماتهم خالطت القشرة الإنسانية

في بلادنا لبرهة زمنية، امتلكوا فيها أسباب الحياة اليومية لإنسان بلادنا. إلا أنهم ظلوا كل الوقت ينتظرون على البوابات.

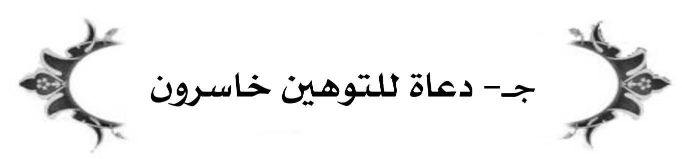
لقد تيقن هؤلاء أن تيار النهوض الإسلامي ينازل الظلمة والمحتلين في معظم الساحات، وأنه يحقق الإنجاز تلو الإنجاز فوق الساحة الإسلامية الممتدة، مع ضعف الإمكانات وشراسة المعركة التي يخوضها. وعندئذٍ فإنهم لم يجدوا القول المعقول، ووجدوا أنفسهم أمام عيب واحد يَصمُ الورد بأنه أحمر. أي إنه يصف تيار النهوض بالأصولية، وكأنَّ الأصولية وصمة عار. في حين أنَّ الأصولية التي نفهمها هي النهوض المتأسس المتأصل ذو الأصل والفصل المعروف مَن هو أبوه ومن هي أمه. وليس الهجين الذي لا يعرف الناس أباه ولا أمه. ومن هنا جاء مقتل هؤلاء، من هذه النافذة بالذات، إذ إن الناس لا يأبهون بضائع الأصل، ولا يعيرونه اهتماماً. ليس هذا عندنا وحسب بل هو ديدن الإنسانية جمعاء. ارجع في هذا إلى تأريخ الغربيين: إنهم اقتبسوا معالم التجريب العملي من حضارة المسلمين، وأخذوا كثيراً من معالم التقدم منهم، ولكنهم عزوها إلى الجذر اليوناني أو الروماني، ليؤصلوا ما هم عليه، فلا يتيهوا بهوية حضارة الغير الإسلامي. وهم بذلك أصوليون جاحدون. بينما حضارتنا نحن أصولية غير جاحدة، إذ إننا لم ننكر يوماً أننا اقتبسنا علماً أو فكراً نافعين من غيرنا...: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

٣- أمثلة:

وعندما فاز الاتجاه الإسلامي في الانتخابات التشريعية الأخيرة في مصر، ذهب الذين ضيّعوا الأمانة كلَّ مذهب في تفسير الحدث، وقالوا كلَّ كلام مرجف إلا

الحقيقة القائلة إنَّ الناس في بلادنا- رغم أنوف المضيعين- مؤمنون بإسلامهم، مؤيدون لكلِّ من يحمله بقوة، ويدعو لإقامته فيناً حاكماً لحياتنا، ولا يحتاج الأمر لمناسبات أو أحوال اجتماعية أو سياسية ليظهر الإسلام فينا. إنه مقيم في الأمة إقامة قلوبنا وعقولنا وتاريخنا، حتى أنَّ أولئك الذين لا يلتزمون بسلوكهم بأدبيات الإسلام، ويظنُّ مضيعوا الأمانة أنَّ هؤلاء فارقوا الجمع، إلا أنهم ضمن التيار الذي صنعته الفطرة الربانية أولاً، والثقافة المتأصلة على مدى خمسة عشر قرناً ثانياً، وهو ما لا يفهمه الذين خانوا الأمانة وخرجوا عن خط الربانية الذي ينظمه قول رب العزة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦]. فقد أراد الله لقلوبهم أن تكون أفناناً تظلل شرفات الدنى بإيمانها، ولكنهم حولوها إلى جدران صلدة من الجحود. وها هم اليوم وقد حيرهم فوز الإسلاميين في فلسطين!. لم يقرَّ لهم قرار، ولم ترس لهم فكرة على أرضٍ صلبة، فهو يدخلون في حومة التحريض تارة، وتارة يكتبون بصيغ التشفي أو الأماني السوداء الحاقدة، فلم تبدر منهم كلمة ناصحة واحدة...!!، وإنها لقراءات خاطئة بل هي الخطايا بعينها.. ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤]. وإنها لأقلام غير مسؤولة.

بسم الله الرحمن الرحيم



جـ- دعاة للتوهين خاسرون

ويذهب أصحاب القراءات الخاطئة في كثير من كتاباتهم مذاهب التوهين ليكونوا من الخاسرين، لكن الرجال ينبتون على ضفاف الكلمات الهادرة، ويُعْلِنُ الفرح بهجته من ضحكة طفل غُذي بأحرف الرفض، فلا تركنوا إلى ثقافة البكاء على أطلال الواقعية، فإنكم إن فعلتم فسوف يكون الوهن قائد «أوركسترا» الثقافة الهزيمة.. ولا تجعلوا أيام التراجع التي نعيشها حاكمة التاريخ الثقافي فيكم؛ لأنه إن فعلتم فقد استسلمتم لسماسرة البيع في أرجاء بلادكم، وبصمتم لمثقفي الوهم، الذين ينعقون صباح مساء؛ كي لا نبقى جمعاً، كي لا نبقى أمةً، ولكي ينفرد كل منّا بكهف يحسبه كل شيء، فقد أرهقته حروب لا يفهم مغزاها ولا معناها، وأرقته أفكار تقاطرت وعلا ضجيجها في ساحات «سبتمبر» المصطنعة، فتناسخت منها ثقافات خرافية، راحت تشتم كل أصيل، وتهدم كل بناء عامر، وذلك لتغزو الأرض العربية وهي فارغة الإهاب.. وعلى أبوابها دعاة للتوهين يدّعون أنهم يعرفون الطريق، مع أنهم في الحقيقة غارقون بالجهل، غارقون في الظلم، لا ينتمون إلا إلى أنفسهم وإلى مطامح دنيئة سكنت كياناتهم، محاولين بها إعلاء قاماتهم، وقد اهتدوا إلى نزوة عقيمة النسخ تقول: إن الشعر منقذ كل شيء.. وما كان الشعر يوماً إلا أفقاً، حتى إذا حاول أن يقفز فوق قَدْره، انزوى هناك في أقبية كُتّابه؛ لأنه لم يحمل همّ المتلقين، ولا تبين له نور اليقين، الذي تُوقِد فوانيسَه أسئلةُ الذات وإجاباتٌ عليها نابعة من حاجاتها وتربتها، متنورة بانتقاءٍ مناسب لتلك الحاجات،

وقادرة على النمو في التربة نفسها.. ومغتسلة بندى القمم وأمجاد التاريخ.. تنشد معها القول:

إن فسيلة الأمل يجب أن تحيا، فيا أيتها الكلمات لا تغلقي دوننا أبواب النجاة، فبإمكاننا أن ننهض من جديد.. شرط أن تُسكتي الحروف سليلة الهزيمة، ويا أيتها الحروف لا تدَّعي الحكمة، حين تنشرين الفحيح، وكُفِّي عن الضجيج، فلن نقول يوماً للجلاد هاك أيدينا، وهذه أرجلنا، ولديك الحديد.

كم من المرات عثرت أقدامنا وطوحت بنا الخيول..؟

كم من الغدوات كنا نروح بعدها مطأطئي الرؤوس، مهيضي الأجنحة، مكسرة نصالنا..؟

كم من الرقود عانينا، طالعتنا فيه شموس باهتة كسيفة، فكانت أغنياتنا أنيناً ونشيجاً مبحوحاً..؟

لكننا في كل تلك الأزمان لم نفقد شموخ الجباه، ولم نعدم حيلة لجعل كلماتنا السديدة تفتح أبواب التاريخ من جديد.. فلا تركن لفحيح التوهين، مقصوداً ومأجوراً كان، أم كان بريئاً متوجعاً قلقاً..

لا نريد أن نمضي خلف «زارات» التوهين، وضجيج المخذلين، ممن فقدوا بوصلة الاتجاه، فراحوا يتخذون من بعض الصور المتردية في المشهد العربي الإسلامي العام ذريعةً كي ينعوا الأمة، ويمتدحوا الخوار القادم من الشاطئ الآخر، على أنه الحضارة المنقذة، التي يجب التزامها من البداية وحتى النقطة الأخيرة في سفرها.. وهي التي قال فيها أبناؤها: (بالرغم من القناعة السائدة القائلة بأن اقتصاد السوق والديمقراطية قد اتحدا لتشكيل آلة جبارةٍ تساند التقدم الإنساني وتطورُه،

فإن هاتين القيمتين عاجزتان عن ضمان بقاء أية حضارة إنسانية، إنهما حافلتان بالتناقضات ونقاط الضعف، وإذا لم يسارع الغرب ثم الولايات المتحدة بوصفها قائدة الغرب المعينة بقرار ذاتي، إلى الاعتراف بنقائض وأزمات اقتصاد السوق والديمقراطية، فإن الحضارة الغربية سوف تأخذ بالانحلال التدريجي، ولسوف تدمر نفسها بنفسها)... «المفكر الفرنسي جاك أتالي في صحيفة القدس العربي» ١٣-١٤/ ٣/ ٢٠٠٣م.

وإذن فإنه لا ترهبنا قولة القائل: «زمن ينحدر فيه العالم العربي إلى أسفل سافلين»، ماضياً إلى القول في وصف ثقافتنا بأنها: مرآة الثقافة الخرافية الأصولية التي تجعل من المظاهر الأخلاقية بديلاً عن الأخلاق ولا تهتم سوى بقمع المرأة، وضبط السلوك الجنسي العلني، وتحريم كل شيء» مُعَرِّضاً بذلك بالثقافة الإسلامية التي تجعل المجتمع – برأيه- يحتج على برامج مستوردة، فيها برأينا من التفاهة ما تضج منها التفاهة نفسها، في حين أن مجتمعنا هذا لا تدفعه ثقافته إلى الاجتماع على المجازر والقتل وقمع الحريات الجاري في فلسطين والعراق وكل الأنحاء...

نقول لا ترهبنا مقولة هذا القائل؛ لأنها داخلة في باب ثقافة التوهين والتخذيل عندنا، وهي ثقافة اشتد أوارها، وعلا صهيلها منذ اليوم الأول لأحداث الحادي عشر من أيلول/ ٢٠٠١، مما يثير الريب حول تلك الأحداث وصانعيها والمروجين لها، والبانين عليها وعلى تداعياتها من احتلال أفغانستان ثم العراق، إلى اشتداد القبضة الصهيونية في فلسطين، ثم دعوات الإصلاح وتغيير الثقافة والإغارة على الثوابت والهوية والخصوصية، تحت شعار العولمة والتحديث والتقدم والإصلاح..

وهي لا ترهبنا ولا توقف تطلعنا للنهوض؛ لأن المقولة تحمل في ثناياها عوامل موتها واندثارها، إذ إن فيها من جلد الذات ونكران ما تختزنه هذه الأمة من

مذخور نهضوي غالٍ، استطاع على مدى التاريخ أن يوقظ جهات الموات في الأمة، وأن يبعث الحياة النابضة الثائرة في جسدها الذي غزته العديد من الأمراض، هذه واحدة.

وأما الثانية فهي أن هذه الأمة مع كل ما اعتراها وما غزاها من فيروسات، ما تزال تنعم بالكثير الكثير من أسس اليقظة والنهوض والتمرد وإخراج المارد المتفوق، وأخص بالذكر الأساسات المكينة الأخلاقية والروحية والبنائية، التي لا تقوم المجتمعات إلا عليها وبها، فإذا اكتمل لها البناء المادي اهتزت وربت وأنبتت من كل تفوق بهيج، خصوصاً وأن الحضارة التي يدعوننا للاقتداء بكل ما فيها من عجر وبجر لا تمتلك إلا صوراً باهتة متصدعةً من هذه الأساسات التي ذكرنا.

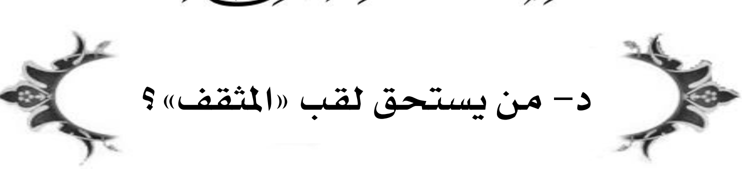
وأما الثالثة، فإن أصوات الناعين هذه التي نسمعها اليوم، وتمثل نعيق البوم فينا، يطلقها من كانوا سبباً في إدخال فيروسات المرض والهزال على هذه الأمة، من ذوي الأقلام التي ادعت الحكمة على خطا الليبرالية الغربية العلمانية، أو على خطا الاشتراكية العلمية التي انهارت أنظمتها عند أول مفترق طرق، وباختصار أقلام اليمين العلماني الغربي واليسار العلماني الشرقي، وعندما وجدوا أن فيروساتهم بدأت تدب في الجسد المسترخي للأمة جدّوا السير، ورفعوا النقيق بالويل والثبور وعظائم الأمور، بل راحوا يسابقون الزمن لرفع لافتات النعي الكامل للأمة، وهو تصرف مستهجن قال فيه رسول الله ﷺ: **«من قال هلك الناس فهو أهلكهم»** إنهم سبب الداء وعلة السقم.. أفيحق لهم إدعاء الحكمة اليوم..؟! وهم لا يملكون أي بديل، اللهم إلا بضع تلفيقات يجمعونها من على الموائد الخربة، يحاولون بها إدعاء الفكر والفلسفة والحلول الإصلاحية.

ولقد ذهب التلفيق بأمثال هؤلاء وبأقلامهم غير المسؤولة مسافات شاسعة،

مبتعدين فيها عن الأمة ووضعها، بل عن الكيان الإنساني كله وما يفكر فيه، وما يموج فيه من قوى وأفكارَ وعناصر بقاءٍ، ولنستمع لأحدهم يقول في إحدى الصحف العربية الذائعة الصيت: «إن سقوط أمريكا في الوقت الراهن سيكون إيذاناً بعودة البشرية إلى القرون الوسطى والتخلي عن البيبسي كولا والجينز، وعودة العُربان إلى ركوب الأباعر والحمير، والتداوي بالقطران وغيره، وإرسال البريد بالحمام الزاجل...».

أرأيت إلى أي مدىً ذهب الوهن والتوهين بهؤلاء..؟ ألم أقل لكم: لقد ذرّ قرن الفتنة، وراح هؤلاء (من أصحاب الألقاب العلمية والمهنية) يستندون إلى وسائل فتحت لهم أبوابها على مصاريعها بتحريض أمريكي، أو بإغراء من رنين الأخضر البنكي، أو بتبعية حصلت بعد غسل الأدمغة كما تغسل الأموال الخبيثة في المصارف اللئيمة.. إنها قامات ما كانت لتشرئب لولا مكر الليل والنهار.. يدعون الناس على أبواب الجحيم الأمريكي، ويخدمون في الصفوف الخلفية لعسكر أمريكا من أجل تخذيل الداخل العربي والإسلامي، لعل وعسى أن يجنح الجميع إلى سلمهم المختوم بالذل والخزي والعار والإصلاح داخل إصلاحياتهم، على اعتبار أننا أحداث لم نبلغ الحُلُمَ بعد.. ولكن خاب فألهم فأمتنا بكل ما فيها ومن فيها داخلة- إن شاء الله- في سيرورة مشوار النهوض والصحو.. لن يوقفها صوت عن اليمين أو عن الشمال. ونقول هذا مع علمنا بكل الأمراض التي نقلتها هذه الأصوات ومن دعمها من قبل إلى قلب الأمة.. حتى لا يُقال: إننا ننام على آذاننا وننتظر.. لا .. أبداً فقد قال لنا التاريخ أكثر من مرة: إن هذه الأمة قامت من تحت الركام وتقدمت الأمم.. بل إن العديد من غزاتها دخلوا في دينها وثقافتها وأصبحوا من المدافعين عنها.. فلا يأس ولا وهن.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.





د- من يستحق لقب «المثقف»؟

من يقرأ حالنا بعين السائح ليس مثقفاً، ولا يمكن إلا أن يكون من الموهنين للأمة

يقول (فرانشيسكو روزي) المخرج السينمائي الإيطالي: «ينبغي أن تنجز أعمالك ليس بعين السائح»[1].

الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بالأخذ بها، وهذه الكلمات التي أوردناها آنفاً قالها رجل غربي، صاحب ثقافة وتجربة وتقنية فنية إبداعية، هي حكمة يمكن أن نواجه بها الكثيرين من مدعي الثقافة في عالمنا العربي اليوم، الذين يتصدون للتنظير الفكري والثقافي، ينسجون منه ديباجات، تحمل رؤية السائحين، فهؤلاء يختزنون وعيهم وثقافتهم في أعماق صدور، لا تتجاوز في حراكها الأرض وترابها وإنسانها إلا بعين السائح العابر، الذي يحتضن في ذاكرته خواطر وأفكاراً عن مشاهداته، لا تشكل بأي حال من الأحوال سوى نظرة سطحية ساذجة، غير مطابقة للواقع في أغلب الأحيان.

وعلى طريقة المغلوب المنبهر بعروض الغالب ومرافعاته، أو على طريقة السائح العابر، يمضي مدعو الثقافة في الكتابة، لتقرأ بأم عينيك جلداً للأمة، وإدانة لعقلها وثقافتها، وإخراجاً لها من تاريخ الثقافة والإبداع الأدبي والفكري والعلمي،

(١) الحياة ١٤/ ٩/ ٢٠٠١.

ناظرين إلى هذا التاريخ بعين واحدة رمداء، لا ترى من ذلك التاريخ إلا صور القتال والفتن والصراع على السلطان والنفوذ- مع أن مثل ذلك وبشكل أشد وأعتى حدث في جميع الأمم- ولم نر هؤلاء يختصرون تواريخ تلك الأمم ببعض من مشاهد تلك الصور القاتمة، بل على العكس من ذلك، نجدهم يبرزون من تلك التواريخ لحظات الإبداع وأخبار المبادرات المتقدمة. إن الأقلام غير المسؤولة المدهنة للأمة تُغير على مثقفيها المخلصين لتاريخها وثقافتها المتميزة بقولهم إنهم ليسوا سوى بكائي أطلال، يعيشون في الماضي، ولا يساهمون في إنتاج المستقبل، وهذه النغمة- إن أحسنا الظن بهم- لا تنطلق إلا من حنجرة سائح، لا يعرف طبيعة الأرض التي يزورها، ولا الخلفية الفلسفية للمشاهد التي يتفرج عليها، ولا التاريخ الذي ضم البشر القاطنين على الأرض التي يطؤها. وهي طريقة ونظرة كما ترى، لا تستوعب اللحظة الحاضرة للأمة،- إذ تقف اليوم في صف المغلوبين- حيث ينظر الناس العاديون إلى أنفسهم من خلال المشهد الآني نظرة دونية. وفي حين ينتظر من المثقفين أن يكونوا الفكر النير والثقافة المخلصة، يشير واقع الحال بأصبع الاتهام إلى هؤلاء، لأنهم كانوا أول من وقع في فخ التبعية والنظرة الدونية، بل وفي وحل الانبهار الذي شلَّ كل محاكمة عقلية وفكرية عادلة، الأمر الذي جعلهم يدينون تاريخنا، ويفرغونه من كل فضيلة، ويدمغون عقلنا، ويصفونه بكل نقيصة، وذلك تحت شعار التحديث والنهضة، متناسين أن ذلك يحدث منهم تحت تأثير انبهار المغلوب بالغالب، عندما يكون المغلوب مغترباً عن ثقافته مستهنياً بها، مسلوب الإرادة، مأجور التفكير، وإلا فإن المثقف المالك لإرادته، المنخرط في ثقافة أمته، الحريص على خصوصيتها وإبداعها الراغب في خروجها من حومة التبعية والاستلاب، لا بد أن يتعظ بموقف المثقف الغربي «آلفار» الناقد لموقف مواطنيه من

لغتهم وثقافتهم، ذلك الموقف المنبهر بثقافة العرب والمسلمين الفاتحين في القرن التاسع الميلادي فقد قال آلفار متألماً: «إنهم (أي قومه) يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية، ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين، لا بقصد تفنيدها، بل من أجل التمرن على الأسلوب الصحيح الأنيق في العربية، وجميع الفتيان المسيحيين المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية والأدب العربي، ويعلنون على الملأ حيثما وجدوا أن الأدب العربي شيء بديع.. ما أعظم الألم!.. إنهم يقرضون من الشعر بالعربية ما يفوق من الوجهة الفنية أشعار العرب أنفسهم»[(١)].

لقد كانت ثقافة العرب والمسلمين في القرن التاسع الميلادي هي الثقافة السائدة، وأهلها هم أصحاب الكلمة والقرار في ذلك الحين، ووقع الغربيون في حومة التقليد والانبهار بالحضارة والثقافة الغالبتين، لكن ذلك لم يمنع مثقفاً واعياً حريصاً على خصوصية قومه من الوقوف في وجه الموجة، لينتقد ويوجه ويوقظ. فهل يخرج الكثيرون من مثقفي أمتنا من حَيِّز الانبهار والتبعية إلى ساحة التحدي والتيقظ، ليستحقوا حينئذ لقب «المثقف»؟

(١) القدس العربي، ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٠.

المبحث الثاني

الأقلام ومفارقة الحق..! وفيه :



أ- العدل في القول والعمل



﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ....﴾ [الأنعام: ١٥٢]

تاريخ من الهزائم تسجلها في صحائف الأمة جحافل من المفارقين للحق من أمتنا، تحت دعوى العقل والتعقل، وهي في الحقيقة دعوى تنزل تحت عنوان الانبهار بأشياء الغير، والعزوف عما لدى الأمة من خير، إلى أن يصل الأمر بهؤلاء إلى مفارقة العدل بالأقوال والأفعال، مع أنهم مأمورون بإتباع الحق، ونبذ الأهواء، والنظر بموضوعية وتحرٍّ في كل ما يطرح على الساحة من فكرٍ وأدبٍ وسياسةٍ واجتماعٍ واقتصادٍ، ليقولوا بكل ذلك كلمة عدل وصدق، لا كلمة زيف وانبهار، ولا موقف تصاغر واحتقار للذات، أمام سيل هادر من المعارف والأفكار الغازية، المشحونة بالأخطاء، سواء من ناحية دلالاتها، أو من ناحية منهجية التوصل إليها، أو من جهة الكوارث التي نجمت عن تطبيقها اليومي في أرض مصدرها. وقد أمرنا رب العزة بأن نكون مع الحق والعدل أبداً، نتحراهما في الكلمة وفي الفعل وفي السلوك. فقال جل من قائل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال أيضاً: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]. وقال رسول الله ﷺ في رواية صحيحة رواها الإمام أحمد: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**».

وفي تفسير هذا الكلام الذي بدأت به هذه السطور نقول: إن مفارقة الحق تبدو من خلال العديد من المظاهر التي نعدُّ منها في هذه العجالة مظهرين:

الأول: انظر إلى هذه الحملة الشعواء يحمل وزرها أصحاب الأقلام، المفسح لهم في تسويد الصحائف اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية، والمفتوحة أمامهم نوافذ الفضائيات وأبوابها على مصاريعها، أقول: هذه الحملة التي تستهدف بشكل رئيسي أكبر حركة إسلامية في العصر الحديث، ألا وهي (جماعة الإخوان المسلمين) التي قامت مُسخرَة من الله لإعادة كلمته إلى مقدمة الحديث والحدث في العالم، فكما أن بعض الحملات في التاريخ القديم والحديث لهذه الأمة استهدفت شيوخ رواة الحديث، من أمثال: أبي هريرة- ﷺ - وشيوخ جامعية من أمثال: البخاري ومسلم، وذلك بهدف محاولة خبيثة لهدم سيرة الأشخاص الكبار، من الذين انبنى تطبيق هذا الدين وممارساته الحقة على ما حرروه من نصوص صحيحة وقدوات مغدقة سامقة، وذلك انطلاقاً من حقيقة أن هدم هؤلاء الأشخاص وتشويه سيرتهم، لا بد أنه سيؤدي إلى هدم البناء الذي بنوه وأعلوا مداميكه، وهكذا فكما أن هذا كان، فإن حملة مماثلة لتلك القديمة الجديدة، قامت تستهدف الإخوان اليوم وغداً والبارحة، بما أنهم طليعة حَمَلة الإسلام في عصرنا المتكلفين بالجهد العظيم، والبرنامج الأشمل، الهادفْين إلى إعادة الإسلام لموقع قيادة الأمة، كما ظل على مدى قرون طويلة. وقد دخل في حمأة الحملة رسميون وغير رسميين تبنوا كِبْرَها، وحملوا وزرها وأوزارها، ولا بد أن المراقبين لاحظوا إلى أي مدىً وصلت سفاهة هذه الحملة في مصر، حيث لم يَعُد الحاكمون هناك يستحيون من الظلم والاعتداء على حق الشعب المصري وحق الحركة الإسلامية، لدرجة الإسفار عن وجه سلطوي قبيح، يتخفى خلف قناع حزب مصنوع على عين السلطة يحصد الأصوات بالتزوير والتزييف والبلطجة، وبفهلوة إجرامية لم تعد تخفى شناعتها على أحد، بعد أن أنتنت رائحتها، وانكشفت عورتها، واتضح لكل أهلنا في مصر أن السلطة التي تحكمهم ليست إلا مجموعات «مافيوية» تخدم في جيش الأعداء، خلف الخطوط أو في مواقع تمهيد الأرض أمام زحفه المشين المقيت، غافلين عن قول ربهم

عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] وهم بذلك قد فارقوا الحق والعدل، وهما اللذان قامت السماوات والأرض والحياة عليهما، وهم بذلك أيضاً فارقوا العالم الحقيقي، وليس العالم الزائف الظالم الذي يحاول الغرب تعميم مخرجاته ومدخلاته، المبنية فوق ملحٍ من فكرٍ وأدب ولغة فارقت جميعها مصلحة الإنسان.

والثاني: ثم يأتي دور أولئك الذي يعملون على فتح بوابات حصوننا أمام حشود الغزاة ممن يحملون الأقلام، متذرعين بحجة الانفتاح على العالم، في حين أن ذريعتهم تلك لم تكن إلا التسليم لكل نفايات الآخر، ولكل ما جنت عليه من كوارث حملتها مناهج وأفكار وسلوكيات الغربيين، صنعت القوميات الشوفينية الضيقة، وجعلت الحروب الظالمة في أوروبا وفي العالم ديدناً لا يتوقف فعله، ولا تنقطع كوارثه، واتخذت من إبادة الشعوب الأخرى، والاستيلاء على ثرواتها، ومحو ثقافاتها وخصوصياتها منهاجاً وتوجهاً، وحولت بفلسفاتها المادية العلوم الإنسانية إلى مادة للتجريب المخبري، كما في الكيمياء والتشريح، فخرجت كثير من منتجاتها فجة غليظة غير مهتدية، وذلك كله بعيداً عن الهداية الربانية، التي تصنع المعرفة الحقة الصادقة، التي تقود الإنسان في حياته الدنيا إلى ملاذات آمنة من الأفكار والتطبيقات والبناء الإنساني المنسق الجميل.

وبناءً على هذا فقد فارق الحق وانغمس في ظلم القول والفعل حين قال واحدٌ من هؤلاء في إحدى الصحف العربية: إن المسلمين (قد فارقوا العالم) الذي عصفت به (أنوار فرنسا وتنوير ألمانيا) اللذان أفضيا إلى (إرساء سنن وأعراف وتقاليد، ثبت نجاحها بالتجربة والمثال). نعم إن المسلمين فارقوا هذا العالم بفكرهم وهويتهم وعقيدتهم، نظراً لما رأوا ما آلت إليه حركات التنوير والأنوار الأوروبية من ظلم للإنسان بشكل عام، ولم ترسِ تلك الحركات إلا غرائز الطمع وحب

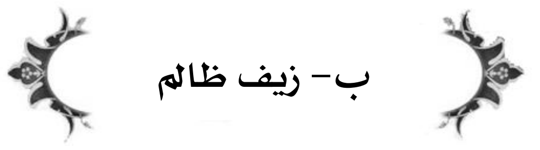
الهيمنة، والاستيلاء على موجودات الآخر، وإبادة كل من يقف في طريق تلك التجربة الغربية المجرمة، حتى إن بعض تلك السنن والتقاليد، تجافي الديمقراطية والعدل والنزاهة. والبرهان على ذلك سهل، إذ يكفي أن تنظر إلى ما جرى في فلسطين والعراق وإلى ما يجري اليوم في سورية ومصر وحتى في أوروبا وأمريكا من جور وظلم، ومفارقة لعالم الهداية والإنسانية، حتى تعلم مدى ما انحدر إليه صاحب هذا القول من منزلق الانبهار وجلد النفس، لدرجة الاصطفاف مع إدعاءات أولئك الخصوم المجافية للحق والحقيقة، وقد وصل به الانزلاق لدرجة تسويغ تحطيم العراق، وإبادة سكانه وتشريدهم، وتبديد ونهب ثرواته، ثم نهب فلسطين وإبادة وتشريد أهلها، ثم إثارة الفوضى في كل اتجاه من اتجاهات العالم، قتلاً وهدماً وعدواناً، وإنهاء وجود دول، ونهب المليارات، أقول: لقد وصل به الأمر إلى تسويغ قيام أولئك بكل تلك الجرائم، بأنهم يتكئون على حوادث قام بها بعض المسلمين، الذي لم يستطيعوا كبح جماح ردات فعلهم على جرائم الغربيين، فنتج عن تصرفهم المُدان عددٌ من الضحايا لا يساوي واحداً من مئة ألف من ضحايا أولئك الذين اتخذوا من محاربة ما يسمى بالإرهاب ذريعةً للعدوان المستمر على الإسلام والمسلمين، ووصل الأمر بهذا وأمثاله للدخول في حماقات لا يمكن تسويغها بأية ذريعة؛ فاللغة العربية التي لا ينكر تفوقها على كل اللغات إلا جاحد أو مريب، نعتها هذا بعسر الأداء في المعنى، واستغلاقه على الإفهام، ورد ذلك إلى منزعين عميقين في بنية اللغة. وهذا لعمري دليل قاطع على جهل الرجل بنفسه، وبقومه، وبلغته، أو على أنه داخلٌ علينا دخول غدر؛ فهو من الهادفين إلى التدمير والهدم، والرسول ﷺ يقول: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**» متفق عليه.

إنه مفارق للحق، مفارق لأمته، مصطف مع أعدائها بغير حق ولا علم.

وصدق الشاعر إذ قال في أمثاله:

والصـــمت أجمـــل بـــالفتى ... مـــا لم يكـــن عِـــيٌّ يشـــينه

والقـــــول ذو خطَـــــل إذا ... مـــا لم يكـــن لـــبٌّ يعينـــه

ب- زيف ظالم

ومن مظاهر مفارقة الحق أن يعيرنا أصحاب أقلام غير مسؤولة بأننا ننظر دائماً إلى الخلف....!

يقول الشاعر شمس المعالي أبو الحسن الجيلي:

قل للـذي بصـروف الـدهر عيّرنـا   هل حارب الدهر إلا من له خطر

فإن تكن عبثت أيـدي الزمـان بنـا   ومسّـنا مـن تمـادي بؤسـه ضـرر

ففـي السـماء نجـوم مـا لهـا عـدد   وليس يُكسف إلا الشمس والقمر

يعيرونا بأننا ننظر خلفنا.. وأن خيالنا يَحنُّ إلى الأمس، بل وإننا نمسك بأوتار الماضي البعيد، أو نرمي شباكنا في بحيرات العودة فنصطاد أسماكاً مجففة، لنبقى نحن كما نحن مذ كنا في ذلك الزمان الباسم..

ألا ترون أنهم يعيرونا بملح وجودنا، وسر صعودنا، ووقود صمودنا، وقواعد بقائنا، وأساسات نهوضنا، والركب الذي يسير بنا نحو أفقنا القادم..؟ ..

وهم لا يكتفون بذلك.. بل هم تارة وعلى ضجيج مفتعل ينعتهم بالألقاب الفضفاضة؛ من مثل المفكر العظيم، والشاعر الفيلسوف، والموهبة الفذة التي لا تجارى.. الخ ما هنالك من ألقاب، راحوا يحتقرون الجميع، ويكيلون الهجاء لتاريخنا وماضينا.. كل التاريخ، ويصنعون في مخيلاتهم صوراً قبيحة نابعة من دواخل مريضة مجنونة لا تدوم ولا تستقر على حال، ثم يقذفون بها الرجال الذين نعتز بوجود أسمائهم في سفر أيامنا الماضيات والحاضرات والقادمات، ونحن لا ندري

من الذين يقلدهم هؤلاء بفعلهم هذا.. نعم لا ندري.. لأنه لا توجد أمة من الأمم تلعن تاريخها، وتشتم رجالاتها العظام، إلا إذا كانت هذه الأمة آيلة إلى الاندثار..!

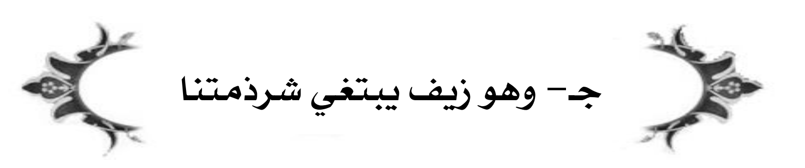
وهم تارة أخرى يرموننا بأمثلة من الأمم أقل منا شأناً في العراقة.. ولا نقول هذا احتقاراً منا لشأن غيرنا، فنحن نحترم الجميع وننفتح عليهم بما هو خير لنا ولهم، لنأخذ ما ينفع، وندع الضار المجرب، الذي أفسد حياة أصحابه ومن اخترعوه،، ولكننا نقوله لأننا نرى أن رمي هؤلاء لنا بتلك الأمثلة سيئة النية، يبتغون من ورائه تمزيق كبريائنا، ويريدون لنا الانسحاق المدوي أمام الآخر، كما يهدفون إلى سرقة إنجازنا الحضاري العظيم وذلك بتصغيره وتوهينه وتحقيره أمام تلك الأمثلة الصغيرة الباهتة..

استمع لواحد من هؤلاء البلهاء الذين يعظمونهم وأعجب من قوله الذي يكرره في أكثر من موضع، إنه يفجؤك، بل يحاول اغتيال عقلك عامداً إذ يقول: «السلطة العربية كانت نوعاً من الاغتصاب الذي استمر من سقيفة بني ساعدة حتى اليوم، ما حدث في ذلك التاريخ البعيد كان انقلاباً عسكرياً قام به عمر بن الخطاب.. الخليفة عمر بن الخطاب أعطى الشورى لستة أشخاص، وقال إن وافق أربعة ورفض اثنان اقطعوا رأسيهما..» ويضيف هذا المعتوه الذي يستمع إليه العديد من أمثاله، وتستضيفه الصحف والوسائل الأخرى من أجل ترويج بضاعتها، نظراً لما صنعوا له من قامة مديدة، لتكون خدمته لأعداء الأمة أفعل، وفعله فينا أنكى وأعمق أثراً.. إنه يقول: «إذا جُردنا كعرب من أثر الغرب فينا ماذا يبقى عندنا؟ يبقى الشعر فقط.. نحن عالة على البشرية.. إفريقيا قدمت أكثر من العرب..»!!

أشك في عروبة من يشتم أمته هذا الشتم المقذع.. الذي يجب أن يُلقى كله في مزابل التاريخ؛ لأنه يجافي الحقيقة، ويكذب الصدق..

آه.. لم يبق في الأفق العربي من يستطيع أن يخدعني بقوله: إن نية هذا وأمثاله تتجه إلى إنقاذ الأمة من مأزقها..!! فهؤلاء الإدعائيون الراغبون في أن يناموا، ثم يستيقظوا، وقد تحولت هذه الأمة المباركة إلى شتات من الناس، يلبسون أقنعة غيرهم، ويتكلمون بلسان أمة أخرى، وذلك كي يفخروا بأنهم ضربوا المعول الأخير في بنائنا، ويستقبلوا كل الأماني الموعودة التي تكال لهم ليل نهار، ولكنهم غفلوا عن الحقيقة الخالدة القائلة: إن هذه الأمة لا تموت وكتابها بين يديها يذكرها- صباح مساء- برسالتها ومهمتها التي أوكلها الله إليها، وهي إنقاذ هذا العالم الذي يعيرونا بتقدمه.. ألم تقرأوا عن هذه الأمة كيف علّمت وحضّرت الأمم التي غزتها واحتلت أرضها مرات ومرات؟.. ألم تقرأوا وتسمعوا عن المغول الذين غزوا واحتلوا ثم عادوا مسلمين.. مؤمنين؟ ألم تقرأوا وتسمعوا عن الصليبيين وحملاتهم، كيف أنهم غزوا واحتلوا بلادنا، ثم ارتدوا يحملون علوم الطب والفلك والهندسة، ثم علوم الاجتماع، والمجتمع المدني الذي كان سائداً في بلادنا والذي كان يبعد عن شعوبنا أنظمة العبودية والإقطاع، وقساوة الحاكم.. إذ يجعل جبروته محدوداً بدائرة محدودة من حياة الناس، التي بقيت حرة كريمة في معظم قطاعاتها. إنهم يعيرونا فيقولون هذه ألمانيا واليابان.. إنجاز علمي وديمقراطي، ونقول لهم وقد قلنا من قبل.. إن النهضة لا تقاس بالإنجاز المادي وحسب.. إن الإنجاز المادي هو بند من بنود التحضر والنهوض، وتبقى السيادة والكرامة والهوية.. فأين هذا من اليابان.. التي ما تزال تخضع للأمر الأمريكي وبسطاره المتوحش.. إنهم اليوم يفضلون قتل أبنائهم في العراق ومعاندة رأي شعوبهم على أن يخالفوا الطلب الأمريكي.. إن إنجاز السيارة والطيارة وآلات الرفاه لا تمثل إلا بنداً فرداً في معركة التقدم، ولا تستند الديمقراطية على قواعد حقيقية إلا أن تتحرر ألمانيا واليابان من القواعد الأمريكية.. إن أمتنا تهاجم الآن، وتحارب بشراسة، وتهدم شواهدها، ليس لأنها لا تمثل شيئاً، بل لأن شعوبها شيء مستعصٍ على الرضوخ والخنوع للأوامر كما هو

الحال في اليابان وألمانيا.. ولو أننا ابتعنا منهم النهوض المادي بالكرامة والسيادة والقرآن.. لوجدتنا اليوم في المقدمة من الإنجاز المادي ولكننا في الوقت نفسه سنكون قد سرنا – في موكب عبيد أمريكا.. ولأننا لم نفعل؛ فهم اليوم يديرون حربهم المتوحشة ضدنا..وهو مصداق قول ربنا: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].



ومن مظاهر مغادرة الحق ومفارقته دعوة بعض الأقلام إلى شرذمة الأمة باستيراد الأفكار والمناهج غير الصالحة لتربتنا، مقلدين ببغاويين، وحق لي أن أقول حولت سؤالي حيرة، ووأدت ركض السنين، وصمتٌ لحظة أرنو قيظ الحواضر في ساحاتنا، والأماسي تغمض فوهات الأفق على وحشة التشرذم والضياع.. ويزدحم الدم بغموض القضية، لكن زيتونة لا شرقية ولا غربية تطلع في الواجهة، غير مكبلة بالسياسة، ولا محاصرة بتشرذم الثقافي، يدينها المزيفون بتطلع ماضوي، ويرشقها به من لا أرضاً قطع ولا راحلة أبقى، فهو كالغراب الذي راح يقلد العصفور، فلا هو استطاع.. ولا هو عرف الرجوع إلى أصله وفصله.

إن جدولاً رقراقاً، أرضه كالعقيق المنقى، يحاول الإفلات من حصار الشرذمة، ليتوسد أرض المعركة فوق كعب رمح الحقيقة المرة، لكن أشتات الثقافة تتغول في مشهد المأساة، وينتفخ في جوفها كل اللغو الذي اجتال أحشاء الثقافة العربية المعاصرة.. بدءاً برمي العقل العربي واتهامه بأنه وجه غريب مسخ، يحتاج إلى ألف عملية كي يعود مقارباً- نوعاً ما- للعالم.. وانتهاءً بنفض اليد منه، وإسدال الستار على مسرحية إمكان مقاربته من العقول «الفذة».! ومروراً بكل المحاولات المشبوهة المقنعة بزيف الحداثة والتقدم، تلك المحاولات المبتغية طي أشرعة النجاة، وإفساح الطريق للرؤى الحمقى، الطالعة من وهم النحت المستمر في الجدر الصامدة، أملاً في أن يكبو الجواد عند حافة الهاوية، فيقع في أحشاء الوحش المنتَظِر..!

وها هو مثقفنا في غمرة هذا المشهد التائه بين شتى الخواطر وأخلاط الأسفار،

يُضَيِّع المسؤولية، ويفقد بوصلة الإبحار- إلا من رحم ربي- ويظل الموجوع يرقب الأشواق، ويعدُّ آهات الحنين إلى أشرعة الأفق المضيء، ويُسرج الليل بشمعة وريشة ومحبرة وزناد فكر، وزند مشمر، وقدحِ إبداعٍ يعيد المثقف والثقافة إلى حومة المسؤولية التي يختزنها القلب الإيماني الكبير الموقن بالبشائر الرحمانية؛ إذ تقول بعودة الينبوع الأصيل، يصب في الجداول الرقراقة، آخذة ألوانها المتعددة من أصلها الأصيل، والناحتة من مجراها المتجدد حلو الإضافات وزين العقيق الآدمي، لتصب في النهايات في تيار الإنقاذ المتعالي على تطلع متطامن متخاذل منبهر أبداً، لا يرى للتقدم إلا صيغة واحدة لا ترنوا أبداً إلا إلى غرب، وكأن كل العالم اختزل في هذا الغرب، فكل معرفة أو رؤية لا تخرج من عنده هي معرفة ورؤية متخلفة.

ومن هنا أبدأ، فأقول: إن مسؤولية المثقف في أمتنا عظيمة وخطيرة.. إن عليه أن يقود الناس في هذه الظلمة الحالكة على أساس قويم ورؤية واضحة محددة مكينة، تصافح التاريخ والأصول، وتنهل من بدائع عصرها نضيج الثمر، زاهي العطر، قريب الهضم والاستيعاب عظيم المشاركة الإنسانية.

إن الناس في بلدك أهلك وخلانك، وهم البحر الذي إن خرجت منه أو عليه تهت أو مت كما يموت السمك حين يخرج من بحره.. وهم على عهدهم يحبونك، ويرجونك أن تمحضهم النصح، وأن تأخذ بأيديهم إلى بر الأمان، لا أن تضيع عليهم الطريق في الجري خلف أوهام، تعرف أنت أول من يعرف أنها زيف وخذلان.

إنهم ينتظرونك على الناصية؛ يحملون حبهم لماضيهم وتاريخهم وآبائهم ورموزهم، وفي المقدمة من هذا كله دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم، ولا يطلبون منك إلا تنويرهم بما يسهل عليهم العيش في عصرهم، وذلك من خلال إسقاط كل ذلك

الذي يحملونه ويحبونه في قوالب متقنة مؤصلة آخذة بزمام معرفة عصرية قويمة.. فإن أنت أتيتهم بذلك فقد فزت وفازوا، وأخرجت نفسك وأخرجتهم من هذا الضياع، الذي أدخلنا فيه من سموا أنفسهم بالمثقفين، وراح كل منهم يفتح وكالةً عن مُنَظّرٍ مستورَد، فَيُسَوِّقُ لبضاعته.. فأصبحت تسمع أصواتاً متداخلة متنافرة، شاتمة هذه الأمة ومعارفها وأصولها وبضاعتها، داعية إلى أخذٍ جزافٍ ببضاعة المسوَّق له، بلا أناةٍ ولا انتقاءٍ ولا تروٍّ، وذلك مع دعوة متعجرفة إلى نبذ ما بين الأيدي، المتهم عندهم بالبوار والتخلف والانسداد، ناهيك عن اتهام الإنسان العربي بالجهل وبالغياب. والانعزال عما يحدث حوله من متغيرات، وذلك بصيغ أقل ما يقال فيها أنها غير دقيقة ومتعجلة ومجافية لواقع الحال؛ ففي حين أننا نعلم- ويعترف بذلك أصحاب الشأن أنفسهم- أن الأمريكي يجهل حتى أحواله، ولا يعرفها إلا من وسائل الإعلام، نجد الإنسان العربي (من الطفل وحتى الشيخ) يعلم ما يدور حوله، ويعلم ما عند الأمريكي وما يدور في العالم، ويملك حساً نقدياً عالياً لما يرى ويسمع، وهذا ما نشاهده وما نسمعه ونعرف أماكن الصدق فيه وأماكن التضليل..

إن قول القائل في جريدة القدس العربي في ١٩/ ٤/ ٢٠٠٤: «الإنسان العربي يعيش مرحلة القرون الوسطى، فهذا الإنسان لم يع حتى الآن التغيير الذي حدث في العالم منذ القرن العاشر الميلادي..» وهو قول يحمل في طياته أسباب موته واندثاره، وقد بينا أعلاه مدى خطل هذا القول..

إن الأمر لا يتعلق بوعي الإنسان العربي وتفتح عقله بقدر ما يتعلق بأوهام وشرذمات فئة ممن يدَّعون الانتماء إلى الثقافة العربية السياسية والإعلامية والفكرية .. الذين فقدوا الاتصال بالناس منذ أن غادرت مراكبهم شواطئ اهتمام ناسهم

وتوجهاتهم وما يرنون إليه.. ومنذ ركبهم جن وعفاريت تقليد الآخر، وانتابهم الهوس بانتحال شخصية المناهج الغربية دون تمحيص، والانشقاق عن كل ما يمت لذاكرة الأمة من صلة..

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].



د- مفارقات للحق غريبة

من الكلمات والنصوص ما يبزغ في أفقك مثل غابة عارية، ترفل في جنح ليل معتم، فتسمع وأنت بين صحو ونوم أنات ريح موجعة، تخترق جرحك المملح بألف صورة يومية من الهدم والقتل والقمع والقهر. وتدنو قاصدةً محو الزمان والمكان من ذاكرتك، محو لافتة عَلقت ببواباتها، قالت لك منذ التاريخ: لا تأمنن بني قريظة!. فمن يصدق مقولاتهم يذوب في الماء المالح صامتاً، من غير أن ينبس ببنت أمن أو إصلاح.

إن لم يحمل الشعراء همَّ أهلهم فمن ينهض جامحاً يتلو تراتيل أوجاعهم..؟ وإن لم يتقلب الطليعي بنار الجرح النازف في جنب شعبه، فمن للكلمة الموقف تقمع الحزن، وتجوب نصوص الحياة في أيام شعبي؟.. ومن للنص يحْضر مع الكاتب فلا يموت؟

وتأتي الحداثة الحمقى وما بعدها، لتعلن صلف غياب الكاتب. خذ الكلمات واقرأها؛ اقرأ ما فيها وما بين السطور وما بعدها وما قبلها، وفي العمق تحتها، وفي السماء فوقها، واترك الكاتب يموت في ذاكرتك، يقتله النسيان، عذرك في حمل هذه الفكرة الثكلى، أنك أيها المثقف العربي، الشاعر العربي، الناقد الأديب، مجرد كاتب هوامش، على حواشي ما يدفعه إليك المركز الغربي الثقافي من متون.. (كما عبر عن ذلك الحبيب الجنحاني في جريدة الزمان) ٢٧/ ٤/ ٢٠٠١م.

وأنت أيها الشاعر الفلسطيني (سميح القاسم)، كيف يغيب عنك خطل الفكرة، فيطاوعك جنانك أن تشارك في تلك الأسطورة المهولة (الهولوكست)؟

محاولاً بعث الحياة في خرافة تقتل كل صباح ومساء أطفال شعبك، وتعتدي على مقومات وجودك، وتهين كل قيمة إنسانية ما تزال قائمة صامدة على تخوم ذاكرتك؟

ما الذي تقصده من الإهابة بشعبك المذبوح، أن يقف دقيقة صمت؛ حداداً على ضحايا (الهولوكست) الذين بحجتهم سرق وطنك، وتنشر ذلك في جريدتك؟ مما جعل حتى إذاعة لندن تذهب إلى استغراب عرض وإهابة كهذه من مثلك؟.. أكانت هذه الإهابة منطلقة من إيمانك بمقولة (موت الكاتب) وغيابه عن النص..؟ لكنك لم تحسن التخفي، إذ لم تنتبه إلى أن الناس كل الناس لا يؤمنون بهذه الفكرة المجلوبة، بل إنهم يشددون طول الوقت على تلازم النص والموقف وتناسبهما وتوافقهما، ولهذا فهم يحضرون الكاتب دوماً ليحكموا له الحساب على سطور النص وما بين السطور.

أم أن أحلام «النوبل» وجوائزها راودت مخيلتك حيناً من الدهر، وعلمت أن مفتاح البوابة يقبع في تلك الطاقة؟ ولكنك تعلم أنه قد سبقك بها المنتظرون من قبلك، الآخذون بتلابيب النصوص الأصيلة، كي يفجروا بها جبهات الأمة، ظناً منهم أن كل الاحتفالات التي يلاقونها، والتغني بمنتوجاتهم المعوقة، تغنيهم عن التأمل الطويل فيما أقدموا وما سيقدمون عليه؛ من تقديم رأس ثقافة الأمة على طبق من غدر لأعدائها والراغبين في انفجارها من الداخل.. لا بد أنك قد سمعت بالكثير الذي قدمه أدونيس وكل تلامذته على مدى عقود من شروح على المتون تصلح أن تكون أداة لزعزعة البناء الثقافي المؤسس لهذه الأمة.. ولم يكن ما قيل ويقال عن جماليات وإبداعات ومبادرات رائدة غصت بها شروحه، إلا من باب ذر البخور، وتزيين الزيف، وتعويم البضاعة المزجاة، في سوق المنافسة التي حسمت

مزاوداتها على بوابات مراكز توزيع المتون.. إن كنت قد سمعت بذلك وأظن أنك قد سمعته، فأنت ترى أنه قد قدم الأكثر والأعظم في سبيل تلك «النوبل» التي تحمل الكثير من وهم التفوق. وأختم كلامي هذا بالقول: إني أحسن الظن بك من خلال علمي أنك تحمل همّ قضية وشعب.. فلا أراك تنزلق القدم بك إلى مواقع الفصام بين الكلمة والموقف. أم أن مفارقات الحق غلابة عند العلمانيين مهما أبدوا من مماحكات قولية، هي في الحقيقة كالحبال التي ألقاها سحرة فرعون هادفين للفوز بالجائرة، فسحروا أعين الناس، لكن حبل موسى عليه السلام الذي كان طرفه بيد الله بدد الزيف في الرؤية، إذ التهم حبل موسى حبال السحرة الزائفة فأنطقهم ذلك بالحق.. أفلا تنطقون به، بعد أن رأيتم رأي العين زيف سحرة المفارقة للحقيقة..؟. ما لكم كيف تحكمون؟.

المبحث الثالث

البناء على الظنون، وفيه :



أ- الظن والخراصون الليبراليون

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء: ٦١]

سئل أعرابي: كيف ابنك؟ (وكان الابن عاقاً لوالده) قال: عذابٌ لا يقاومه الصبر، وفائدةٌ لا يجب فيها الشكر، فليتني استودعته القبر.

أبناء عاقون هم.. لذلك فهم كما وصفهم الأعرابي بعقوقهم لأمتهم والأصول كانوا عذاباً لم يثبت له الصبر.. وكانوا حراكاً ولكن لا يجب فيه الشكر، لأن الشكر يقع عند الغنم.. وحراكهم الذي يدللون به على أنفسهم ليس إلا غرماً، ينتقص كرامة الوطن والمواطن من أطرافها ثم من قلبها وعقلها، ونهاية من مكانتها في العالمين، فهل عرفتهم..؟ إنهم أولئك الذين حين يدوي رعد الأمة، تجدهم قد التجأوا إلى مزامير الآخر، يتلون علينا ما يزيد في علتنا، كأنما الغير سلطهم علينا، ليحرثوا في بحرنا، ويقتلوا براعم التفتح للخير في أزاهيرنا.. ألم يقل قائلهم كبيرهم الذي علمهم سحر «الليبرالية والتنوير» كلامه المغلق على نفسه، المهدم لمكانه ومكانته، الذي لم يغادر قوقعته المتمثلة في جسده وعقله، إلا إلى مسافة غير بعيدة في دائرة موصودة على كومة من نتن ذات ريح وفحيح وصديد، نزّت منه جملة فاسدة قبيحة تقول: (لا الله أختار ولا الشيطان..كلاهما جدار، ولن أستبدل جداراً بجدار)، وهي تحمل لا فتة كتب عليها المصدر بحروف من جحود (أدونيس).. إذ

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[النور: ٦١]. وقد كثر في هذه الأيام عُمْيُ القلوب والأبصار والبصائر.

وجاء القوم الواهمون ليعلنوا علينا «الليبرالية» بضاعة مزجاة.. معتبرين أنفسهم قد اكتشفوا العالم، وأسباب النجاة، ووهم التنوير.. ولو رجعت إلى قاموس اللغة ومفردات القول: لعلمت أن «الليبرالية» هي «الحرية» التي تجعل الإنسان حراً في اختياره، حراً في حياته، حراً في أقواله.. ويذهلك الاكتشاف..! فهؤلاء عجب قولهم، كما هو عجب اكتشافهم هذا.. ألم يعلموا أن الإنسان يولد حراً أصلاً: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) وهي جملة يجلجل رنينها منذ أربعة عشر قرناً ونيف في آذان العالم..! ولكن الصدود والنفاق يذهبان بالناس خلف الهوى مذاهب عجيبة ومردية.. تقودهم إلى البحث عن المطلوب بعيداً، وهو مذخور في ثقافتهم وحياتهم وتاريخهم.

الآن هم اكتشفوا الحرية.. عندما قال بها أهل الرطانة..؟! إنهم يظنون وإن بعض الظن وهم.. ولا بد أنهم من الخراصين الذين قال فيهم القرآن الكريم: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ - ١١]، وهم لا يخفون علينا ولا على الأمة بأجمعها، فقد اختاروا ويا خسارة ما اختاروا، عندما قالوا تفسيراً لليبرالية التي يوجهون إليها: إنها حرية المواطن في بلادنا في أن يختار أي شيء أو أي فكر إلا فكر الإسلام وعقيدته.. متهمين دين أمتهم بأنه بضاعة قروسطية متزمته لا تبالي بحرية ولا بإنسان حرٍّ.. لذا فهم يقولون ويلوون ألسنتهم بالقول: إنهم يريدون لهذه الأمة أن تختار الليبرالية بتفسيرهم الذي لا لون ولا طعم ولا رائحة له، فهم يرددون دائماً أنهم ليسوا ضد الدين.. ولكن الدين الذي يعنون هو ذلك الذي ليس له علاقة بالوطن والمواطن ومناهجهما، وسياساتهما

واقتصادهما.. وهكذا هم يحرفون الكلم عن مواضعه بداية.. لأنهم في الطور الثاني من اعوجاج ألسنتهم لا يريدون وجود دين أبداً- خصوصاً دين الإسلام- فلقد دلّهم وهمهم الذي يتوهمون أن هذا هو السبيل إلى صنع مكانة لهم في مجتمعاتهم.. وما دروا أن هذا الذي يلهجون به من دعاوى التغيير والنقد للأوضاع القائمة.. لا يصل منه شيء إلى قناعات الناس، بعد أن يسمع منهم المواطنون دعوى الليبرالية التي لا تقوم على شيء سوى الحرية الشخصية الفردية الجامحة.. تلك التي برهن الواقع والعلم على أنها وهم قائم في أذهان حالمة، يصطدم كل لحظة وآن بحدود حرية الآخر، وحرية الجمع، ومصلحة الأمة .. وقد صَحَتْ أمم الغرب التي ذهبت فيها دعوة الحرية الفردية الجامحة كل مذهب، صَحَتْ على خطل هذا الوهم الذي عاشته ردحاً من الزمن، فوجدته مجرد ترهات لا تثبت للحقائق أبداً.. ولا تثبت أمام حاجة الإنسان الملحة إلى الله ودينه: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥] إنهم يظنون.. وظنهم هذا كله إثم، لأنهم توصلوا من خلال هذا الظن إلى استنتاج خدعهم فيه زادهم القليل من العلم والتجربة والخبرة والبرهان، وكان قائدهم فيه ذلك التقليد الأعمى للغير، والاستماع لهذا الغير، وإلقاء الأذن والعقل والفكر له: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، ولم يكن هذا الغير إلا الذي يريد بنا جميعاً كل ويل، وكل تأخر، وكل تلجلج، لنكون في اللحظة المناسبة لقمة سائغة، لا تمسكنا هوية، ولا تميزنا خصوصية، ولا تقودنا مبادئ ولا عقيدة ولا دين بل هو الهوى المردي يجول بنا في أنحاء العالم، بينما الحلّ بين أيدينا ولكننا نرفضه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. إنه على أنقاض هذا الركام والصغار قامت دعوة الإخوان على يدي الباني الإمام «حسن البنا» رحمه الله.. تقول للناس: أن

هلمّوا جميعاً واعتصموا بحبل الله المتين، وخذوا دينكم جُنّةً وحماية، وتواصلوا مع تاريخكم وتراثكم، وأبنوا فوقه الأبراج والإضافات المتينة النافعة لكم وللبشرية، وتقدموا من الإسلام بإهدائه للعالمين غضاً طرياً نافعاً فاهماً للعصر وحاجاته ومقتضياته، قائلين للناس جميعاً في هذا العالم: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ....﴾ [النساء: ٦١] و﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾[الزُّمَر: ٢٣] فتعالوا نفهمه ونستوعبه وندخله العصر الذي نحن فيه، غير ضارِّين ولا مضرِّين، ومن غير إفراطٍ ولا تفريطٍ.. دعوة اعتدال وعدل وشهادة وسط يحدونا بها قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ...﴾ [الحديد: ٢٥] ويصحح رؤانا فيها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ ...﴾ [الأنعام: ١٥٢]وقوله جلّ من قائل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وحديث رسول الله ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم» رواه مسلم.

فيا أيها القوم ارجعوا عن غيكم، فلا تكونوا من الخراصين، المتأبطين زخرف القول غروراً، داخلين في ظنٍّ لا يمت إلى أي مبدأ سديد بصلة.. بعيداً عن الحرية والعدل ومسؤولية القلم.



ب- والثورات والخراصون



كلماتهم المرتجفة المرجفة، تحاول احتلال المكان، هؤلاء هم المتعالون العلمانيون المتفيقهون، ومع ذلك فهم طامحون إلى ابتلاع منجزات الثوار، بدسهم على الأمة شعارات ومصطلحات، لا تفيد إلا في الدمار والهدم، وإلا في احتكار التبعية للأغيار، في حين أن ادعاءهم الحرص على مستقبل الأمة عريض لا يبارى، مع أن الله جلت قدرته بين للأمة أن في التبعية الهلاك والضلال إذ قال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وقد حاول هؤلاء الاتباعيون المقلدون الافتراء على الحراك الإسلامي بشتى المفتريات، ومنها قولهم:

١- إن الهدف الوحيد للحراك الإسلامي، هو الوصول إلى السلطة، وهو في سبيل ذلك يقيم التحالفات مع الغرب وغيره للوصول إلى الهدف، ومن ثم ركوب موجة الثورات مع أنهم لم يكونوا فاعلين فيها.

٢- وإنه يجب على الحركة الإسلامية- كي تكون مقبولة- أن تنسى غايتها المتمثلة بالمرجعية الإسلامية لأي دولة تقوم في أرضنا، وأن تنتمي إلى الدولة المدنية (التي لغموها بألغام نسف الإسلام).

٣- وعلى هذا الحراك أن يقدم ضمانات لأقواله حول الدولة المدنية والديمقراطية وتداول السلطة. هذا فضلاً عن الكثير من المفتريات المريبة على الثورات

والحراك الإسلامي، التي يدير رحى دعايتها هؤلاء الموصوفون بالتبعية للغير، حيث في السطور الآتية سوف نتتبع خطل أهم ترهاتهم فنقول:

أ- **بشأن الهدف:** إن محاولة أي فئة للوصول إلى الحكم لتطبيق برامجها وإقناع الناس بها ليست تهمة، فكل حزب أو هيئة لم يقم في هذا العالم إلا من أجل ذلك، للوصول إلى تنفيذ برنامجه ووضع هدفه موضع التنفيذ وإلا كان وجوده عبثاً وعالة، فما بال هؤلاء العلمانيين والليبراليين واليساريين يعيبون على الحركة الإسلامية المعاصرة سعيها إلى مراكز النفوذ أو الحكم، ولا يعيبون على أنفسهم هذا السعي؟ ثم ما بالهم يغيرون على الحقيقة القائلة بأن الحركة الإسلامية كانت مكوناً رئيسياً في الثورات، وقد اعترف القاصي والداني بذلك؟ وكان الإسلاميون الداعين الرئيسيين إلى توعية الناس بخطر أهداف الغرب ومناوراته، وليس كما يقول هؤلاء المتخرصون بأن الإسلاميين يتحالفون مع الغرب من أجل الوصول إلى الحكم ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

إننا أمة عربية إسلامية مثلنا مثل كل الأمم، حيث السبيل القويم يقول: إنه يجب أن يكون الإسلام بثقافته وحضارته وتراثه العظيم أساساً لا نختلف عليه، وحينئذٍ يكمن اختلافنا حول الوسائل والآليات والفهم والمناط الذي تنزل عليه الوقائع.

ب- **أما بشأن الدولة المدنية التي يدعوننا إليها**، وهي لا طعم لها ولا لوناً ولا رائحة، فإننا نقول لهم منذ اللحظة: إن تلك الدولة الخاوية من كل مرجعية، هي دولة فاشلة مخالفة للمتعارف عليه عالمياً في أساسات الدول

ومبادئها وقيامها على فكر محدد وشروط ورؤى مسبقة، وأمامنا شواهد من أعتى ديمقراطيات العالم، التي يدعو العلمانيون والليبراليون الجدد لجعلها قدوتنا، فها هي دساتير تلك الديمقراطيات (البريطانية والأمريكية واليونانية والإسبانية والدانماركية والسويدية) تنص على أن الرأسمالية مكونها الأساسي، وعلى أن يكون الرئيس أو الملك من مذهب الأكثرية بغض النظر عن أديان الأقليات ومذاهبهم من نفس الدين كانوا أم من الأديان الأخرى، ولم نسمع أن أحداً من تلك البلدان اعترض أو أقام ضجة احتجاجاً على هضم حق الأقلية كما يجري افتعال ذلك في بلادنا اليوم..!! إنهم يغطون عداءهم للإسلام وحتى للأمة بتلك اللافتات المتعفنة الآسنة، التي لا تملك أي حق ولا منطق ولا عقل يزين أقوالها التي تقضي بفرض (أجندات) الأقلية على الأكثرية.

ج- **وأما طلبهم من الحركة الإسلامية** أن تقدم ضمانات مسبقة لتوجهها باتجاه الدولة المدنية والديمقراطية والتداول السلمي للسلطة، فإننا نقول لهم:

١- إن مسمى الدولة المدنية هو اختراع الليبراليين الجدد، فلم يسبق لأي سياق سياسي غربي أ و شرقي أن ذكر أو تداول هذا المصطلح، وهو في حقيقته وأساساته مصطلح يخبئون خلفه العداء لدين الله ودعاته وثقافة ٩٠٪ من شعوبه، مع أن الإسلاميين يقرون بالدولة المدنية ذات المرجعية الإسلامية.

٢- إن الذي يطلب منه تقديم الضمانات هم هؤلاء المتخرصون، وليس الحركة الإسلامية، فهم استمروا بديكتاتوريتهم العلمانية يديرون البلاد منذ قرن من الزمان، فلم يعطوا أحداً حرية ولا سمحوا برأي حر، ولا

أظهروا حرصاً على حقوق الإنسان، بل كانت عهودهم مزدحمة بالظلم والقهر والكبت والقتل والسجون، أما الإسلاميون فلم يجربوا حتى اليوم في الحكم، وهم ينادون بكل مبادئ الحرية، بل يعدونها فريضة. تُرى فمن الذي يُطلب منه الضمانات؟ الذي جُرِّبَ وفرَّط وطغى وبغى من قبل، أم الذي كان مظلوماً مقهوراً؟! ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] .

إن الحق أبلج.. وهو ينتظرِ فجرِ الغد، وينبذ زخرف القول: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ - ٧]، كما ينبذ الذين ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] تخرصاً وعذراً بمسؤولية القلم.



جـ- في الرجاء والأمل والحراك
خلاص من التخرص



إن زخرف القول الذي ذكرناه آنفاً يحاول إحباطنا ولكن الرجاء بالله له بالمرصاد، فهل تكسرت نصالنا؟.. هل هذا القهر الدائر بكؤوسه المسمومة أوقف المسيرة، فلا حراك..؟ هل غادر الأمل والرجاء مرافئنا؟ فبتنا على مشهد الدم البرئ المسفوح، وعلى مشهد الهدم والنهب والسلب والهيمنة والغطرسة، نتبرأ من تاريخنا، من الهدي الذي أوجد الحياة فينا كلما فاجأتنا الأيام بالأزمات، من النور الذي أضاء لنا ليالي القحط، التي لاقت مسيرتنا فترات من التاريخ..؟!

هل أعمل الإحباط فينا معاوله، حتى أصبح ينطلق فينا القائل المارق، ليقول على ملأ من الناس وبدون مواربة: إن مشاريع الإسلام مشاريع ميتة بحكم قوانين التطور الزمني والحضاري «القدس العربي ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٤» وذلك على لسان كاتبة تجوف كيانها، فراحت تعبئ التجاويف بكل ما هو معاد لحركة الإسلام.. بلا منطق، ولا حجة علمية.. بل باستخدام العبارات الفضفاضة والكلمات المجوفة، التي لا تستند إلى حقائق ولا إلى معرفة علمية يقينية، شأنها في ذلك شأن «الليبراليين الجدد» الذين ضبطوا إيقاعات وجودهم وكلماتهم مع إيقاعات الهجمة العامة لليمينيين الجدد المتصهينين في أمريكا وفي غير أمريكا، وهم في هذا الاتجاه وفي غيره يخدمون على طريقة: «عنزة ولا طارت»، محاولين أقصى جهدهم لتهديم كل الرجاء في قلوب الناس من أمتنا، وبعث الإحباط واليأس مكانه، وذلك كي يجد الذل والتبعية وتوقف الحراك الدفاعي في الأمة مكاناً آمناً، وحضنا دافئاً.. ليبيض ويفرخ

ويصفر على مزاجه وبكل الاطمئنان، فيعمل نهباً وسلباً وذبحاً، في جو مسلوب الإرادة، معدوم الفعل..

لا .. أبداً فألف وأربعمائة عام من التاريخ تقول لهؤلاء: مهلكم، قفوا.. فإن الرجاء في هذه الأمة لم ينقطع، وعلى مدى المحطات الكثيرة التي مرت بها كان منهج الله فيها هو الغلاب، وكان الرجاء بالله وبدينه، والانحياز إلى تعاليمه- رغم الشدائد والعوادي التي ابتغت تقويضهما – هما اللذان سلما هذه الأمة سبيل النهوض من الكبوات والعثرات، وأعطياها كل أسباب النصر والتقدم والوقوف الشامخ.. فمنذ الهنة الأولى والفتنة الكبرى وحرب صفين وما تلا ذلك من أحداث، وحتى أيام الناس هذه، التي بلغت فيها الهجمة مداها الأقصى ووسائلها الأعتى.. مروراً بالغزوة التترية، والحروب الصليبية، والاستعمار الحديث وغيرها وغيرها من المحطات المأزومة، كان الرجاء بهذا الدين، والثقة الغالية بالله ومنهجه ومصداقية حملته، والانحياز إلى دعواتهم ودعاتهم ووقفاتهم الرجولية المتبصرة المقدامة، غير الآبهة بنعيق المهزومين، الذين يحملون «أجندات» الآخر المهاجم، كان ذلك كله هو ما كسر قيود الإحباط، وما حطم دعوات الخذلان والاستسلام، التي ادعت أن العدو الحضاري متقدم، قوي صاعق، يملك ما لا نملك، أوراقه منظمة منمقة، وتياره لا يقاوم، وقيامته تنفخ ببوق النهاية لمن لا يكون واقعياً، فيركن إلى الحضارة الباهرة ويطأطئ الرأس للقوة الطاغية، ويسلم الأرض والعرض والفكر والمنهج لها بلا تردد.

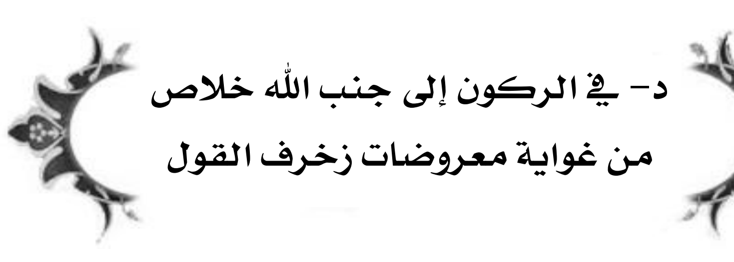
هل نستكين وفينا قول ربنا عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢١٨]..؟ هل ننحاز إلى الإحباط وفينا من السيرة وفي التفاصيل منها قصة أحد وما

تلاها من إغارة مجتمع المسلمين على جيش الجاهلية- رغم الجراح التي لم يتوقف نزيفها بعد- ليكون ذلك الحدث درساً لكل من تهوله قوة الأعداء، أو يبهره ما لديه من تقدم في الوسائل المادية والتقنية، ولتكون الكلمات التي نزلت من عند الله، تربت على جراح المؤمنين، وتبعث الأمل والرجاء في نفوسهم، وتعيد العزيمة والشموخ الإيماني إلى قلوبهم وسواعدهم وإرادتهم، إذ يقول رب العزة وهو خير قائل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤] ، كما قال جل من قائل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠]، وهكذا كان.. إذ نهضت الثلة المؤمنة متكئة على عزيمة إيمانية لا ترتد، رغم أن جراحها ما زالت تنزف، فطاردت الكثرة الكاثرة من جيش الضلال والظلم.. الذي رغم انتصاره الشكلي في أحد.. فزع إلى الهروب والتخفي حتى وصل إلى مكة خائفاً يترقب.

إن الرجاء الذي تختزنه قلوب الأمة، والأمل بالله والثقة به وبدينه ومنهجه هي العدة القويمة القوية التي تعيد النهضة، وترفأ الجرح، وترفع الكبوة فـ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ، والمؤمنون في عصرنا هذا وحركاتهم التي تبتغي إنقاذ الأمة بتجميع قواها حول منهج الله، لا ينسون أبداً أن كل مفيد وجاد من تمدن الآخر مطلوب أخذه، ومرجو خيره، وتجب المبادرة إلى

التعامل معه.. بدون انبهار ولا ارتماء ولا تسليم له بكل شيء، وقول الكاتبة (التي أشرنا إليها في البداية) عن المؤمنين المسلمين بأنهم يتعنتون في قبول أفكار البشر المختلفة عن أساليب الحياة التي تناسب عصرهم، ويستخدمون مصطلحات الأسلاف الذين ماتوا قبل أن تعرف البشرية صناديق الاقتراع والقنوات الفضائية والإنترنت والطائرات والسفن الفضائية والفنون السينمائية والمسرح وطرق الإنتاج ووسائله وشركاته (وهي كلها بالمناسبة من مبتكرات هؤلاء الذين نبذوا الدولة الدينية وتفرغوا لتحسين الحياة)..

إن قول هذه الكاتبة يدعونا إلى خطة شر وخذلان، حيث جعلت من نفسها «رويبضة ناطقة»، فهي وأمثالها بدلاً من أن يجعلوا حروفهم أدوات تعميق لجذور الخضرة والإيناع لأمة العرب والإسلام، جعلوها معاول اقتلاع للجذور، وأدوات إفناء للخضرة وإنضاج الرأي على نار الهوية المبصرة المنفتحة بلا انبهار لذا فهم الذين عزلهم الناس فأكلهم الإحباط، بينما الرجاء والأمل بالإسلام وحركاته يتعاظم في الصدور والزنود. مع فهم قويم للإسلام، وانفتاح واعٍ مستوعب لكل ما هو غالٍ ونفيس من منتجات العصر، بعيداً عن التبعية والانبهار والتقليد غير المهتدي تجري في مصارفه أقلام غير مسؤولة.



قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤ - ٧٥].

بعيداً عن التخرص والظن وذلك بامتثال الإنسان لأمر السماء وفهم علاقة الحياة بالموت وما بعد الموت الفهم الحق الذي يدخل الإنسان بوابة السبيل القويم والإدراك المستقيم المؤديين للحصول على عهد الله بالتثبيت والنصر: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. إنه التثبيت أهم قضايا المؤمن في عصر يموج بالفتن ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ...﴾: ليس إلا الله قادر على تثبيتك، ففي هذه الأجواء المجنونة التي تحيط بتفاصيل الحياة، وفي خضم الأمواج العاتية التي ترتطم بكل دقيقة من دقائق سيرتك، تدفعك دفعاً، وتؤزك أزاً- للركون إلى ترهات من ضلالهم، وللارتياح إلى غرور زخرف قولهم ففي هذا المناخ العالمي والمحلي، لن تجد سبيلاً ينقذك إلا الركون إلى القول الرباني الثابت، والالتجاء بقلب خالص ونية صادقة إلى من بيده التثبيت، ومن عنده التأييد، ومن بين أصبعيه القلوب يقلبها كيف يشاء. فهل تريد الثبات؟.. وهل تريد المنجيات؟ وهل تريد النصير؟ تلك المطلوبات التي تخلصك من ضعف الحياة وضعف الممات؟ إذن فاشحذ همتك

وارتفع بعزمك، إلى رحب الآيات، وسعة الدنيا والآخرة، وإلى شوق المحبين يتصاعد ليلامس روح ونهج وسيرة محمد ﷺ، فلا يبقى بينك وبينه أي حجاب، ولا يقف دونك أي عائق، فأنت حينئذٍ تستحق عناية ربك ورعايته وتثبيته، تلك التي تحول بينك وبين الوقوع في براثن الركون إلى هذا الغثاء من الفكر ومن الثقافة، ومن الفن الذي يُعرض عليك صباح مساء في سوق الغواية «الصهيوأمريكية»؛ تلك الغواية التي استطاعت بالزخرف والتعزيز والخداع حيناً وبالترهيب والتهديد والعدوان حيناً آخر، وبتخاذل الآخر القابل لأحابيل هذه الغواية من رسميي ومثقفي المسلمين، وبتضعضعه وبقراءته الخاطئة للمشهد العام الطاغي حيناً ثالثاً، استطاعت الغواية والتخرص أن يَسلبا الكثيرين رشيد الخطو، وتوقعهم في أحضان الجلادين، في حين أنهم كانوا يبتغون الحماية والحفاظ على الزهو.. ناسين أو غافلين عن أن الله جلت قدرته قد نبه المسلمين جميعاً إلى سوء هذا المآل، ومغبة ذلك السلوك والفعال بقوله جلّ من قائل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] .. هذا الزيغ.. هذا الركون إلى الظالمين يختطان في ساحاتنا عبث الرعب، إنهما يحتلان بالذل المصنوع، وبالضعف الموهوم، كل قنوات الرشد في عقولنا، كل أقلام القرار وأصابع الكتابة في آفاقنا. وويل لك إن داهمتك الصحوة، وعمدت إلى الآية ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥]، فرفعتها لافتة كريمة، تحاول بها أن تذكر القوم: أن ثمة قوة، في الركون إليها يكون الخلاص من كل ذلك الذي يتصنعه البعض منا، ليعمموه على الجميع، ظناً منهم أنهم بذلك يحمون امتيازاتهم، أو يكسبون رضى

الجلاد العالمي الظالم، معرضين عن الحقيقة القائلة: إن هذه القوة مذخورة في الالتجاء إلى الله أهل التقوى ورب التثبيت ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾ [الإسراء: ٧٤] لا في تسولها من الأعداء، أرباب الإرهاب، الذين اتسم مجتمعهم، وتميزت دولهم، منذ عرفناهم في التاريخ، بالدم والحروب والعدوان، بدءاً من إسبارطة، وحروب الروم والفرس، وغزو الروم الدموي لكل الأرض، وانتهاء بالاستعمار الحديث، وآفاته، وإرهابه، ومذابحه، واغتصابه أوطان الناس وثرواتهم، وإهداره كراماتهم واعتدائه على أعراضهم، وطمسه ثقافاتهم ولغاتهم، مروراً بالحروب الصليبية، والحروب البينية بين الأوروبيين التي عرفت بحرب المئة عام وحرب الثلاثين، وبالحربين العالميتين اللتين ذبحتا ما يقارب السبعين مليوناً من البشر خلال ثلاثين عاماً من القرن الماضي، وانتهاءً بالاعتداء السافر الظالم على وطن الفلسطينيين واغتصابه وإعطائه هدية ليهود، وتشريد الشعب العربي الفلسطيني، وإطلاق يد يهود، يعيثون في فلسطين وفي بلاد العرب تقتيلاً وإفساداً وهدماً واعتداءً على المقدسات، بتأييد ودعم حثيثين من قبل القوى التي يتسول البعض منا الحلول منها ، وقد ركنوا إلى دعواتهم الخادعة المضللة لحرب ما يسمونه الإرهاب، في الوقت الذي كانت فيه تلك القوى الظالمة مصدر الإرهاب والظلم والعنف عالمياً. وإن كنت تريد البرهان على ذلك، فانظر إلى ما قتلته اليد الأمريكية في فيتنام وفي أمريكا اللاتينية وما فعلته في فلسطين وفي مصر والهند من قبل وفي كوريا واليابان وفي كل بلاد العرب والمسلمين أيام الاستعمار.. انظر إلى كل ذلك.. ولتكن تلك النظرة المراجعة دعوة للجميع لتدبر الآية: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] ثم العمل بها فهي الخلاص من الذيلية والذل والهوان.. ومن التخرص وخيانة القلم ومسؤوليته.



هـ - الظنون وتغرُّب الزمان



الظن السيئ والتخرص يقولان لك: ابدأ من عند أقدامهم، ولتمتد قامتك بعدئذٍ، بقدر ما يضغطون بأحذيتهم فوق إهابك، ولا تنبس ببنت شفة، بل هدّل حاجبيك علامة فارقة، تشير إلى انصياعك. ولكني ناصحٌ لك قبل الصمت فقائل: إن هذا الذي فعلت سوف يخذلك فانطق بحرية تَجِدْ نفسك، وعبّر عما في نفسك بلا وجل يهابونك وليهلّ الفجر من بين شفتيك، فالعصر الذي يريدونك أن ترتاد أسواقه فتتسوق.. هو القادم الفاجع.. الذي يطلب إليك السكوت عنه، لا ليس السكوت بل التأييد لقتل الشعوب والجماعات.. فهم يريدونك المرة أن تنطق باطلاً يداوي عيبهم، ويغطي عوراتهم؛ فقد أدمنوا انتهاك الحقيقة، وأسلموا ضمائرهم لصنع الخراب، وأرادوا أن يقنعوا الجميع أن ما يفعلونه في بغداد وفي فلسطين وأفغانستان والصومال وفي سورية وفي مصر وفي اليمن هو التحرير.. وإلا فإن مجزرة الحرية سوف تطالك بتهمها فترتفع فوق جَدَثِك لافتة كتب عليها: «مسلم.. إرهابي»!! ألم تسمع الانقلابيين في مصر- وهم الدمويون الإرهابيون- يتهمون جميع المصريين في ساحات مصر السلميين العزل بأنهم إرهابيون؟!

«عربي.. إرهابي»!! هكذا.. وبلا مقدمات، عاصفة من (عصْرنة)!، تهب رياحها في كل الأنحاء، لتطغى على قلب الزمان، وتطوي المكان بمعجزة انقلاب الحقيقة، ولكونها تحمل بعض منتجات تقنية فهي تريد من الجميع أن تتطامن كراماتهم فتلعق مقدمات أحذيتهم، لتزاحم في سوادها عتمة الزمان...

ليس هذا فحسب.. إنها تقول لنا: ليس لكم خيار فهو قطار واحد تستقلونه، سِكّتُه الانصياع، وعرباته تدوس الرقاب ولا حراك، بل ولا نأمة روح مجروحة، تدلي بنظرة احتجاج ترسلها إلى الجلاد.. يريدكم العصر أن تكونوا بذعر الأرانب.. وجبن الدجاج.. وكل متمرد خارج هذا القطار «مجاهد»، يعني ذلك أنه إرهابي.. لأنهم منذ زمن «مؤتمر داكار» أجبرونا على التوقيع: أن الجهاد إرهاب..! وأن كل مجاهد إرهابي.. دون تفريق!! وهذه العصرنة هي «الحداثة» المطلوبة.. وهي مستحاثة العصر تلاحقنا في كل مكان، تريدنا أن نوقع بأقلامنا، بل وبقلوبنا على أن قتلهم لنا واحتلالهم لنا ونهب ممتلكاتنا وتدمير بنياننا، إن هو إلا عمليات تحرير، تبتغي جلب الحياة العصرية الحرة الديمقراطية التقدمية؛ لننعم بها! وتعشقها قلوبنا! وتضحك سحناتنا ضحكات البلهاء من فرح، إذ ندمن رؤية القتل يستحرُّ فينا ولا نهتز.. ومن ثَمَّ نئد أحلامنا بأيدينا.. وها هم بعض من حكام العسكر (في سورية ومصر) يدمنون قتلنا، ويئدون أحلامنا، ويستمرون في محاولات نفينا وإقصائنا، ويتفننون – كل حسب ظرفه- في كيفية البقاء متنمرين على شعبينا، فيقدمون الاستخذاء ليهود على أطباق متنوعة؛ كي يحظوْا بضوء أخضر للاستمرار، وعلى خط السير هذا منهما، قدم المجرم في سورية مساهمته في الحرب على الإرهاب، وكانت قضية (عرار) الجريمة عنواناً على هذه المساهمة، وقدم العسكري المصري خائن الأمانة انقلاباً على الشرعية اعتقالات مستمرة واسعة للإخوان وللأحرار من شعب مصر بلا ذنب ولا موضوع..

وهكذا فإنه قد ارتفع صرير أقلام يُسوّق لهذا الهراء، فراح مطبلٌ، يمهر هذا الضياع بتواقيع أقلام أضاعت مسؤوليتها، بفعل ودور كدور ابن العلقمي، فلا يرمش لهم جفن حياء، ولا يهتز في كيانهم عرق من وطن.

وقالوا: إنه لا بد في النهاية من خلاصة تضع النقاط فوق الحروف.. وذلك حتى لا نبقى في وهم الحلم الذي استنسر في أهلنا، ولتفرض الخلاصة «أجندتها» المستحقة بعد تقدمة العصرنة الآتية مكتوبة بأحرف مذخورة بزيف عتيق، يحثو الضباب الرمادي على الكلام.. حتى لا يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود؛ لأن زمن المناورة والمداورة، واستهلال الكلام بمنتجات الاستهلاك هو المتاح عندهم، فليس مفيداً- في عقيدتهم- إلا العصرنة التي نطق بها زمانهم فقال: إنه لا مكان في الأرض لمن يعادي «إسرائيل»..!

أرأيت هذه هي خلاصة العصر والعصرنة بلا لف ولا دوران، فلا تبحثوا عنها في أي مكان، ولا تفتحوا من أجل لقياها أي كتابٍ، فها هي قد وصلتكم مقشرة، كي لا تتعبوا بالبحث عنها، فهاهم بعض أصحاب الأقلام يقدمونها «مزوقة» منمقة، تفري شريان كل من لا يريد أن يتسوق، وهي هي «الشرعية الدولية» التي أصبحت لدينا أهم كتاب مرجعي في العصر.. تمهر الكلام بالفعال المفسرة يتبناها مجلس أمنها.. من خلال «الفيتوات» التي لا تعدّ، وذلك كي يجهض كل كلام غير هذا الكلام، حتى لو كان الكلام صادراً عن اجتماع عربي وشبه دولي أجمع على تأييد اتفاق مكة بين الفرقاء الفلسطينيين أو كان صادراً عن غالبية في المجتمع الدولي يدين مذابح الأسد في سورية ومذابح السيسي في مصر.. فهم لا يريدون اتفاقاً، وإنما اقتتالاً وفوضى خلاقة تنتج سياسة مخربة.

لقد اغترب الزمان، وتنكر الوجه الماكر لميزان العدل، فكل المسالك شائكة، وكل العيون ترحل إلى موطن الغدر، وكل الأبنية الإنسانية استراحت على كتف «البراغماتية» الجبانة، تهدر ثورة العدل، بماء النفاق والمجاملات الصفراوية، وها هي معالم العصرنة تطل بقامتها المديدة من بين قطع الغيار، التي سدت أفق الحقيقة

بأمراض الهوان.. وكانت في سوريا قطعة غيار متمثلة بالنظام الحاكم هناك، راحت تبحث لها عن مكان في (العصرنة)، ولكنه بحث بوسائل عتيقة مهترئة، كانت نافعة أيام الحرب الباردة، فتارة يميل على لبنان، وتارة يسلم لإيران.. ولكن دون جدوى لأنه غير مسنود بشعب، فظل لذلك يدور في فلك الهوان.

ونظراً للسرعة الكلية وأنه على جميع من في الأرض- وأخص بالذكر العرب والمسلمين- أن يفهموا أن الحرية والعصرنة التي جاء بهما السيد الأمريكي بعد تجربة الديمقراطية في مصر وفي فلسطين، لا يسمحان أبداً:

١. بانتقاد الدولة التي أنشأها في فلسطين، لا هي ولا تاريخها ولا ممارستها ولا عقيدتها..

٢. ولا بإبداء الرأي المعاند لاحتلال بلاد المسلمين، كون ذلك الاحتلال يشكل عملاً تحريرياً، بل يجب الاقتناع والقبول بانقلاب الحقائق الذي تدبره الميديا الكثيفة التي تعدُّ مقاومة الغاصب المحتل إرهاباً.

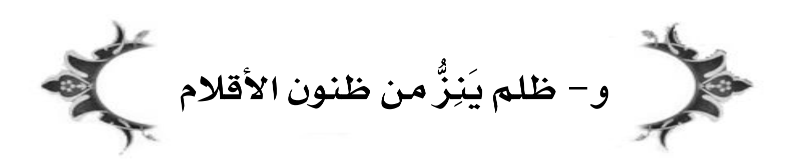
٣. ولا انتقاد رموز سياسة التدمير في العراق وفلسطين وأفغانستان والصومال، بل يجب اعتبارهم رجال سلام وحقوق إنسان، وديمقراطية مرتجاة وأدوات من أدوات العصرنة.. يحملون مجموعة من الأفكار والرؤى، إذا وضعت تحت المجهر، ظهرت رجعيتها القروسطية ومرجعيتها السبارطية والرومانية.

إنها كما ترون رجعية فكر، وصورة رجال يحملونها، يظهرون ببدلات فخمة وربطات عنق فاخرة، تزين واجهات وجوههم ابتسامات مجاملات صفراوية، تخفي دواخل مريضة بالعنصرية وتفوق العرق، وحقهما واستحقاقهما للهيمنة، وكل ذلك يريدونه بدليل دعمٍ غير محدود لكل حاكم في بلادنا، وضع نفسه في خدمة المشاريع المعدة لإجهاض كل شيء في أوطاننا.

ولكني قلت منذ البداية: ابن الوطن.. ابن الإسلام.. ابن العرب.. ليهلَّ الفجر من بين شفتيك، وليطلَّ الفرج من فوق كاهليك.. ودمتم مع الأمل والحلم الذي عبرت عنه طفلة عراقية في قناة الجزيرة يوم ١٩/٢/٢٠٠٧م بقولها: نريد أن تخرجوا من بلادنا لنعيش سعداء فوق أرضنا..

فاخرجوا من فلسطين، ومن أفغانستان ومن العراق ومن سورية، ومن مصر ومن إيران والخليج ومن كل بلادنا، ومن قلوب بعض حكامنا الذين تعلق أملهم بالبقاء بدعمكم لهم في قمع الإنسان..

اخرجوا؛ ليرى الجميع أنهم يستطيعون التعايش بعيداً عن العدوان.. وبسطور تسطرها أقلام مسؤولة تجهض الخلاصة الفتاكة التي ذكرنا حلمها آنفاً.



و- ظلم يَنِزُّ من ظنون الأقلام

يستبيح الظلم عتبات الكرامة الإنسانية، ويعصف البغي بأمان الأرض، ويلتهم الفساد دم الضعفاء، وينهب تعبهم، وحين يتوقف الكلام على الشفاه فلا ينطلق رهباً ورغباً تنطلق كلمات الله، كي تسدّ الثغرات، وتهدم جدران الخوف، وتشد على الأيدي المرتعشة، وتربط على القلوب الواجفة، وتهز البيان الأخاذ الحاسم في وجه الظلمة البغاة، فتفسح بذلك للجراح أن تلتئم، وللصمت أن يصحو من ذكريات القهر، وللصوت أن يرتفع بالحق المبين والشجو والحنين إلى ندى الصباحات العذرية، تصافح بنعومتها السماوية أغصان الوقت، ونبض السنين.. وحينئذ يجتمع الإقدام مع الإيمان، ليصب القوة الواعية في السواعد الهادفة، فيتشكل من ذلك تيار يسد على الظلم المنافذ، ويقف للبغي في ساحات المبارزة: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤٢]. إن ظنونهم وتخرصهم ظلم وأي ظلم للناس.. إنه العذاب الذي وقع عليه الظالمون والبغاة المارقون، جزاء وفاقاً لسكوت الناس عما نشره الظلمة من فساد في الأرض، ولما عمموه على الناس من هوان وبوار ودمار في حياتهم مادياً ومعنوياً، وهو عذاب في العاجلة، وعذاب في الآجلة ولا يحسبن الظالم الباغي أنه خارج من دائرة العذاب تلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقد وضح رسول الله ﷺ هذه الصورة بأوضح بيان إذ قال: «إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته» متفق عليه،

وهذا الأخذ في الدنيا.. أماما ينتظره في الآخرة فقد جاء بيانه في الآيات والأحاديث ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣] وقال جل من قائل: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين» متفق عليه، وقال أيضاً فيما رواه مسلم: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

ولكي يكون مشهد الظلم واضحاً، ومعالم البغي غير خافية، لا بد من إلقاء الضوء على صورة من صور الظلم والبغي، تسود الأمة، وتحيط بحياة الناس، وتلون معيشتهم بكثير من الهم والغم، وتقف حاجزاً وسداً منيعاً في سبيل تقدمهم، ولكي يكون الكلام محدداً وغير معمم نقول: إن الصورة البارزة اليوم، التي تملأ الأسماع، وتسد الآفاق، هو ذلك الظلم والبغي الواقع على دعاة الإسلام خاصة في مجتمعاتنا وعلى مجموع الناس عامة. ويتمثل ذلك في أكثر من نموذج نذكر منها واحداً.

- الظلم الواقع على الدعاة من عديد من يسمون أنفسهم بالمثقفين العلمانيين، فهؤلاء أجّروا أقلامهم إما للسلطان في بلادهم، وإما للهجمة الغريبة القادمة من الشواطئ الأخرى، وإما للجهتين معاً، وقد استخدم هؤلاء في هجومهم وظلمهم وبغيهم مقولات جديدة قديمة من مثل: احتكار الحقيقة، الظلامية، الإرهاب، التعاون مع الأعداء، مناجزة التقدم (الحداثة والتنوير). ونحن في هذه العجالة لسنا بصدد الدخول في التفاصيل والرد أو الدحض لكل مقولة من مقولاتهم، بل يكفينا

من الرد أن نبين أن مرجعية هؤلاء في بغيهم وظلمهم ليس الإسلام ولا فكر الأمة، ولا مصلحتها، بل إن مرجعيتهم مؤسسة فوق فكر الأعداء وبوسائلهم ودعمهم، بحيث أن هؤلاء شكلوا طلائع الهجمة على الأمة لإبعادها عن دينها، وإدخالها في حالة من التعويم الفكري والعقدي، تضيع معه الهوية والخصوصية، وتفقد فيه الأمة عناصر قوتها، وقد كفانا ربنا عز وجل مكر هؤلاء وكيدهم، حين بين أن هذا الدين محفوظ منه، لا يقدم أحد على مواجهته إلا هزم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]،﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]،﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. ومن المعلوم طبعاً أن هذا التأييد من الله يأتي للدعاة مع العلم واتخاذ الأسباب، وليس مع التواكل.

كما أن ربنا جل وعلا أيد دينه، بكشف هؤلاء للناس جميعاً، إذ يحاولون تغطية بغيهم على الإسلام بقولهم: إنهم ليسوا معادين للدين، بل إن ما يقولونه منصب على من يدعون إدعاءً حمل الإسلام، فبين سبحانه لرسوله حالهم إذ قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]، و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ﴾ [المائدة: ١٣] و﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾[المجادلة: ٢]. وهكذا يمضي القرآن بفضح هؤلاء من أصحاب الأقلام ذات الدعوات العريضة بالتنوير والعصرية والتقدم، بينما هم أقلام مأجورة وغير مسؤولة.

المبحث الرابع

التكتم على الحق، وفيه :



أ- ويعلم ما تكتمون..!



قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ....﴾ [آل عمران: ٧٨].

يختفون خلف صقيع الكلمات المخادعة، وينسجون من أخيلة مريضة بالجهل .. بالضياع.. بالدمار.. عوالم ينسبونها لتواريخ شاذة، ووقائع ناشزة، وذلك ليضعوها في السياق، متصلة- بظنهم- بكتاب الله، ومن ثم ليجروا الناس إلى ظنهم: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

استيقظوا أيها الواهمون الغافلون، قبل أن يلتحق وهمكم بلحظة الندم.. إنكم تُصَعِّدون لتجعلوا ما تبطنون من مكر، وما تكتمون من غايات- بنيتموها لتجهز على إسلام الأمة- منتمية منتسبة.. كلا.. ثم كلا.. لأنها واضحة القسمات كليلة النبض، لا تملك مع أحد تفاعلاً، ولا يملك ليُّ ألسنتكم بها أي رصيد من حقيقة أو صدق: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

لقد ظهر خداعكم، وبرزت كل ملامح الضياع التي تحاولون زرعها في سكك الناس، مستخدمين المنابر التي ما وجدت إلا لتعلي قامات قميئة فوق صحف صفراء خضراء الدّمن، وعلى شاشات دميمة المطالع، دنيئة المطامع، خاسئة حسيرة، منبوذة من العقول، تستقبلها الشهوات المنحطة، وتغذوها الأموال المشبوهة، ويطلع بإدارتها من كل معوج اللسان، مشوه الفكر، يسيل لعابه للرنان، لا يرعوي عن بيع

أبيه في سوق القيان: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ .. فهاهم اليوم يلبسون لبستكم، ويتكلمون لغتكم، ويعيشون بين ظهرانيكم، بل إنهم يتصدرون المنابر الإعلامية فيكم، ويدعون أنهم «منكم وفيكم»، ولكنهم يركبون مراكب الكيد والمكر، ويستلون سيوف الكذب والتحريف وخلط الحق بالباطل، وبث الشكوك، ويتخذون من التخذيل، وتوهين العزائم، وتفريق الجموع أياد عند أسيادهم الذين بثوهم بينكم، ليكونوا طلائع هجمتهم.. فهم العدو الداخلي القديم الجديد، وهم منذ بدء ما سمي – زوراً وبهتاناً- بعصر النهضة ذرّوا شرهم، وفتحوا الجروح وأوسعوها ملحاً أجاجاً، فتارة هم التقدميون الاشتراكيون المبتغون إنصاف الضعفاء وتصنيع الاقتصاد، وطوراً يتحول هؤلاء الديكتاتوريون المستعلون بظلمهم وظلامهم إلى ليبراليين علمانيين، يحملون «ديمقراطية عجيبة غريبة، لا تقبل (أي رأي) في باطنها أو في ظاهرها، وأعجب ما فيها: أن عديداً من هؤلاء المغررين المغرورين الجهلاء يتحولون إلى مفتين في دين الأمة، الذي لا يفقهون منه شيئاً، وهم من شدة جهلهم، وسيطرة غرورهم، لا يعلمون أبداً أن هذه الأمة قد ابتليت بأمثالهم كثيراً منذ فجر وجودها وحتى هذه اللحظة، وقد تكفل قرآننا العظيم بفضح بواطنهم، وإظهار ممارساتهم في ليّ ألسنتهم واعوجاجها، فهم مكشوفون معروفون، وللملأ من الناس وعامتهم معروضون، لا تخفى منهم خافية.. وقد بيّن ربنا جل وعلا تجارة هؤلاء وأخلاقهم إذ قال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..﴾ [آل عمران: ٧٧] .. إنهم إذن أناس يكرهون كل ما يمت إلى دين أو خلق، وهم كما ذكر عنهم الأستاذ فهمي هويدي في السفير اللبنانية يوم

١-٣-٢٠٠٥: (فالكارهون والمتصيدون والمتربصون انتعشت سوقهم خلال السنوات الأخيرة، خصوصاً بعد الذي جرى في ١١ أيلول ٢٠٠١، حيث وفرت الأجواء فرصة خروجهم إلى الساحة، وقفزهم إلى صدارة الصفوف، ومحاولتهم قيادة مساعي محاربة التطرف والإرهاب التي كانت قناعاً لتصفية الحسابات، وإعلان الحرب من جانب البعض على كل من قال لا إله إلا الله)..

نعم إنها الحرب على الإسلام، يُتكتم على وضوحها، بإعلانات الحرب على التطرف، وإنهاء الإرهاب، ولكن الألسنة تسبق المكر والخداع، فتظهر الأهداف الحقيقية على ألسنة كثيرة من رؤوس هؤلاء، لتفضح الخطة، وليقول هؤلاء: نحن سفراؤكم الحمقى، المستعجلون قطف النتائج، ولا يهمنا إن برزت السخائم: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠].. «واللغات تجيء بالأسرار» كما قال الشاعر، و«المية تكذب الغطاس» كما قال المثل.

والله جل شأنه يقول: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].. فليرعو هؤلاء من أمثال: العفيف الأخضر، وصلاح الدين حافظ، والبغدادي، عن غيهم وجهلهم وغرورهم. فإن الله بالمرصاد، والقلم غير المسؤول المأجور إلى بوار، فهو منبوذ ومهجور.



ب- ويعلم ما تكتمون



ويفيض فضح التكتم حتى نهايات المسافات، وتمتد إحن النفوس وتتمدد، فلا يبقى من خباياها ستر مغطى.. فهذه آيات الله تشتد في الإضاءة والإبانة، حتى لا يبقى من سخائم النفوس الملوثة أي سرٍ مغطى، قد يلوذ بليّ لسان، أو عوج كلام، أو معسول ريق يقطر سما، فإذا ما تسلق الخبث جدران التخفي، فاجأه برق الحقيقة القرآنية بالشهاب الذي لا يخبو، فهو يكشفه على ظهر طموح قميء، نبت من سحت الانحياز المأجور إلى جناة العصر، الذين برعوا في تصوير الخيانات «أيقونات» من تحرر أو تقدم أو تنوير، لييسروا لأولئك المنحازين طرق الانشقاق عن الأمة.. لكن القرآن الكريم يلاحقهم فيبرز ما يخفونه تحت مجهر آياته الكريمة، إذ يقول ربنا جل من قائل: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الزُّمَر: ٤٥].. فهم إلى الدنيا الشاذة يأرزون، وإلى متاعها الزائل ينتمون، ولا علم لهم إلا ما بينه رب العزة إذ قال فيهم: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠].

أما مصدر اشمئزازهم ذلك، فيرجع إلى أن ذكر الله كفيل بضرب كيانهم من الداخل، فهو يتفاعل مع الفطرة الكفيلة بإبراز الغي الذي لا يستطيعون له رداً، ولا يجدون في إمكانياتهم حيلة تدلهم على سبيل للفكاك من أسر الهوى والانسياق في سبل الجهل والغرور حتى النهاية المؤلمة، التي هي في الدنيا عزلة عن الناس،

واحتقار لهم من الغالبية العظمى، وهي في الآخرة مصير أليم حزين وذلٌّ كسيف، لا يترك لهم ثقل الإطلاع عليه من مجال إلا إلى مزيد من الهروب إلى الأمام ومزيد من الوقوع في براثن الجناة أكثر فأكثر، وهي حالة نفسية معروفة، جعل لها عصر الجناة ملاذات ملوثة مزخرفة بشتى المحرضات، ومختلف الغوايات والإغراءات.. بحيث إذا ذكر الجناة وفكر الجناة، وتوجهات الجناة رأيتهم يفرحون، وعلى الدنيا يقبلون، فهم كما وصفهم رب العزة: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٥].. إنها صورة وصفية نفسية دقيقة ورائعة لحال هؤلاء، تخرجهم نهائياً من الفطرة، وتجعلهم يرتطمون بواقعهم الدنس، فأينما نظروا وجدوا هذا الواقع محيطاً بهم ولا مخرج.. فهم كما قال الشاعر:

قلق أنا وريح المصير كأنني ... ألقيت في وادي الجحيم حياتي

أصحو فيلفحني الضياع فأرتمي ... لا خافقي يسمو ولا خلجاتي

ونمد أيدينا لهم وفجيعة ... أن نحتمي من عارنا بغزاة

ويغرق الإعلام بسيل أقلام هؤلاء، وتعلي الفضائيات من قاماتهم.. رموز فكر، وعلامات طريق، ولكن.. لا سُرَّ من رأى، ولا اطمأن من سمع أو قرأ، لأن الله تكفل بإظهار ما يكتمون وإبراز خطل ما يعلنون: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[البقرة: ٣٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].. والله من ورائهم

محيط، فهم في حرب معه يبتغون إبعاد دينه: .. ويبدو أن الكبر واحتقار الآخر – خصوصاً الإسلامي- صفة ملازمة لهؤلاء.. يزكون أنفسهم، ويعلون من قامات بعضهم، مخالفين أدب الإسلام في القرآن، إذ يقول جل وعلا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، كما أن ربنا جل وعلا وجهنا إلى الابتعاد عن سوء المقال إذ قال: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨]، ورسولنا الكريم ﷺ حضنا على الستر فقال: «**لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**» رواه مسلم.

وهم لا يبقون على صلة، ويتعاملون بالغدر، ويتخذون من التحريض على المؤمنين وسيلة رئيسية، مع أن الله جل وعلا نهى عن كل ذلك فقال في الكتاب العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. وعدَّ رسول الله ﷺ من صفات المنافقين الغدر والفجور في الخصومة فقال: «**.. وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**» رواه البخاري. ويكفيك مثلاً على ذلك (علي جمعة) مفتى مصر السابق كيف فجر وغدر وانحدر مع انقلاب السيسي.

فهؤلاء لا عهد لهم، وأفجر من الفجور في مخاصمتهم.. فاعرفهم أيها المسلم بهذه المواصفات، واحذر من الركون إلى طلاتهم في وسائل الإعلام.. فقد أظهر الله لك ما يكتمون، فكن مع الله والتزم تعليماته في التعرف على هؤلاء الذين غصت بهم واجهات الإعلام. وهم الذين يكتمون الحق فيظهرون الباطل غير شاعرين أن الله يعلم ما يكتمون.



جـ- ويستنصرون بالباطل



فهم حين يكتمون يلجأون إلى الباطل مستنصرين به، لكن حروف الله تشع نصاعة وصدقاً، ويبدو القول الكريم قريباً، يسكن القلوب، فينبض مع نبض الأبهر، فأعطيه ولائي، ليعطيني خلاصة حبه وطريق نجاتي وأصالة الفهم واستيعاب الحياة.

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ [إبراهيم: ١٥]: أيها القاموس.. أيها العلم.. دلاني ماذا تعني هذه الكلمة: ويأتيني الصوت يقول: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ استنصروا بالباطل على الحق، واستنصر الظالمون على المظلومين بالكثير من التجبر والعناد ومجافاة الحق والعدل، وهؤلاء هم المسرفون، الذين أسرفوا على أنفسهم حتى سودوا صفحات الدنيا بسخائم أعمالهم، وقال فيهم رب العزة: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾[طه: ١١١] و﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾[طه: ٦١] و ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٠].. نعم دساها.. إنها نفسه، إنه عقله، إنه فكره، إنه فعله.. ولكن المسافة بين الفعل والنهاية ليست بعيدة ولا هي سعيدة.. إنها الخيبة والبوار رغم الكبر والتجبر والتعاظم والقوة الظالمة.. إنها النهاية التعيسة دائماً: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾ [إبراهيم: ١٥] و﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٠] و﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾[طه: ٦١].. وهما خيبتان: خيبة في الدنيا تحمل الهزيمة بعد التعالي والافتخار، وتجرُّ أذيال الذل بعد الاعتزاز بالقوة المفترية، التي تميزت بالخيلاء والاستفتاح بالباطل..﴿وَيَوۡمَئِذٖ

﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ..﴾ [الروم: ٤] حيث يعود اليمام إلى أعشاشه في الأوطان يفرخ ويبني ويحلم، أما الخيبة الأخرى فهي واقعة حقة بعد أن تتوقف فصول الحياة عن التتابع، وتنأى الدنيا بما فيها ومن فيها عن التنافس، وتقف جميع المخلوقات أمام الحقيقة على صعيد واحد، وتسمع البرايا قول الحق جل شأنه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٥ - ٣٩] .. عندئذ يرى كل جبار عنيد خيبته الكبرى ماثلة أمام عينيه، ولا مفر له ولا ملاذ من جاه أو مال أو سلطان: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، يقفون أمام ما اقترفوه: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨]، فأصواتهم تضيع في زحمة الخوف وهول الموقف، مثل همسة رعب تسقط في ضجيج الشوارع، مثل كلمة رفض في حشرجة الصمت مغلقة عنها الأسماع: مثل نداء في قيظ المدائن الحديثة وزحمة شوارعها وغارات سكانها العشوائية.

والأنكى في هذه الخيبة أن من كانوا يستضعفونهم في دنياهم الخائبة، يقفون في ذلك المشهد الهائل يتغامزون ويهزأون من المتجبرين الطاغين، وينقلب هنالك الموقف، فبينما كان الطغاة الجبابرة مستهزئين بالمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطفّفين: ٢٩ - ٣٠]، إذا بالمشهد ينقلب: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفّفين: ٣٤ - ٣٥].

ولا يظننَ أحدُ الجبابرة الطغاة هم الحكام المستبدون المعرضون عن هدي الله في الأرض وحسب.. بل إن الكثير من المفكرين والكتاب والمثقفين.. ساروا في هذه

الدنيا سيرة الجبابرة الطغاة المعرضين.. وقفوا في هذه الدنيا يغمزون من قناة المؤمنين من ذوي التوجه الإسلامي، وأخص بالذكر من المؤمنين الذين نالهم الكثير من طغيان هؤلاء (الإخوان المسلمين)، فقد وقف الكثير من طغاة الثقافة والفكر والسياسة من غير الحاكمين مواقف الغمز واللمز منهم والتحريض عليهم؛ يفترون عليهم الكذب، ويحرضون عليهم الحكام، بل ويدعون الأجنبي إلى حربهم ونبذهم، ويعبئون الناس ضدهم.. تماماً كما يفعل الحكام في مصر وفي سورية وفي تونس وغيرها من بلاد المسلمين، فهم يحاولون الكيد ما وَسِعهم الجهد، ويملأون الأجواء ويحشدونها بالمفتريات، يطلقونها في وسائل الإعلام المختلفة، مثلهم في ذلك مثل الذي يعبئ الدبابير في أكياس ليطلقها في وجه غريمه.. فهي إذا انطلقت وجدتها تأكل وجه مطلقها أولاً وتكتفي بهذه الغنيمة.. هل عرفتهم الآن..؟ إنهم رؤساء أحزاب في مصر وغيرها، وهم رؤساء تحرير وكتاب وفقهاء فتنة، زجوا بقاماتهم في ساحاتنا، وساعدهم على ارتفاعها – وهي قميئة- قفزهم في عصر الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي فوق المنابر، يرجون للسلطان أن يذبح الناس ويقمع الرأي الآخر، ويطلبون لكل قميء على شاكلتهم أن يسدَّ أبواب الخير عن المؤمنين ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ [ق: ٢٥].

وعلى سبيل المثال لا الحصر بعض الكتاب في مصر وسوريا.. وقد قام في هذا الباب من الهجوم والتحريض على الإخوان والإسلاميين في سورية الكاتب شعبان عبود، فقد كتب في جريدة الرأي العام الكويتية مقالاً كله تحريض للسلطات في سورية على الإخوان والإسلاميين عموماً.. وكان مقاله بعنوان: (عشرة آلاف مسجد.. وغرفة أغلقت) وذلك بتاريخ ٢٠/٨/ ٢٠٠٥.. كما يقول محرضاً على الحراك الإسلامي السوري بعد أن هول من كثرة المساجد والمصليات: (ما يجعلنا

نتوقف عند هذه التفاصيل في الحراك السوري الداخلي.. هو رؤية التهاون الرسمي وعدم الاكتراث بما يجري في المجتمع من تعبيرات أخرى، حتى وإن بدت أنها بعيدة عن السياسة، وحتى لو بدت أنها على مسافة من الشأن العام، ولا تتدخل بمستقبل النظام وسياساته وأخطائه، إننا نقصد تحديداً ذلك الحراك الديني القائم الذي تعكسه بشكل ساطع حركة الجوامع وكثرة المقبلين عليه وما صار يمثله اليوم من عملية تثقيف وتسييس لشرائح كبيرة من المجتمع السوري).. فها هو أحد طغاة الكتاب العلمانيين يستفتح بالنظام السوري.. كي يسد منافذ التدين على الناس، وكأنه لم يكفه كل البطش الذي أنزله هذا النظام بالشعب السوري منذ أكثر من أربعين عاماً.. فجاء هذا المخرف ليذكره إذا غض بصره ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ [إبراهيم: ١٥].



د- ويغيبون الحقائق



قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

أفسح لقلبي ساحة حرية، كي يفرغ في ميادينك رحيق الروح، أدن مني، أهمس في أذن الجميع حدائق النصح، تفتح أبوابها للحب، لشواطئ الأمان العذبة، لفصول من الزمان تستعيد اللحظات النقية الآمنة، يتجاذبها حاضر الأحزان، فترقؤه برقية لا تترك لظمأ الأيام أن تنثر في العروق دماء الأوهام.

انظر إليهم.. جموع تفوح منها لوعات حنين إلى لحظة أمان، ها هم يتناجون بما سيكون.. وقد ألقتهم الأوهام إلى أيدٍ غريبة، تعبث بهم، كما يعبث الخنزير في أرض طرية رطبة، تكاد خضرتها تشرف على الذبول... وهم في حضن الردى، والمفتريات الغبية تناوش أجفان الحقيقة، وهي تطبق على البصيرة أهداباً غبراء، تلطخت بالمنكر الذي صار في ناديهم على المدى معروفاً:

لا تنــه عــن خلــق وتــأتي مثلــه   عــار عليــك إذا فعلــت عظــيم

وتحولت العديد من نواديهم وفضائياتهم بين ليلة وضحاها إلى جسد وكأس وذهول ومعاقرة ذل، خيم منذ الكلمة الخديعة يثرثر بها متفيهقو الواقعية، وحتى الفعل من رسمييهم أصبح يجرجرهم إلى قاعات حضور ذلك الذي غرق بأوهام قوته.. ليتركهم ينقلبون في حمآت زمانه النكد، فهو يقلب الأرض يحرثها بالخراب

والدمار وهم من فزع ومن هلع على مواقع لهم، يحاولون لململة الحواشي والفتات من على الموائد اللئيمة، ولو كان في ذلك هلاك الزرع والضرع والأفلاك.

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]. ولا يفقهون أن في ذلك الذي يفعلونه في ساحات المنكر وبين أحضانه تكمن النهايات الأليمة والمآلات الفاضحة، ولا يعلمون أن مكامن الأدواء ترقبهم، وأجسامهم وعقولهم غير حصينة، فقد أغلقوا نوافذ السمع، فلا تصل إليهم صيحات الإنذار أو نداءات النصح، كما أنهم أهالوا على مدنهم سجفاً من الليل تفتك بالهدى، وتزجي صولاتها بين الآمنين، لتقفز على بيوتهم بغارات غدت من كثرة تكرارها مشهورة بالغثى، مذكورة بالإظلام، فلا شمس ولا قمر يهديان في هذه العتمة الشاسعة الأبعاد المقارفة للأهوال، تلقي بجرانها في أحضان الأوطان، لتنقلب الأوطان إلى جحور لا تشهد نوراً، ولا تذكر فصولاً تعبر الساحات.. إنها اللعنات تحضر في ساعات الاستحقاق، حين يغيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وإنها للسعات الجوع، ورهاب الخوف، يحلان في الديار، حين يهرب الجمع من توجيه الله، ويكفر القوم بأنعمه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فتلك هي مكامن الأدواء إذن: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، ولا يأمرون بمعروف أمروه، ويكفرون بأنعم الله التي وهبوها... وتلك هي المآلات المعدة: الإبعاد من الرحمة الربانية، ولعنات الجوع والخوف والذل المقيم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ...﴾[المائدة: ٧٨]، و﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وها أنت ترى اليوم كيف أصبحت شموسنا ذابلة..! وأشرعتنا مطوية، فقد تقوقعت مقولاتنا، وانزوت في جحور ترفع رايات الآخرين، واستلم زمامها غرقى ضجيج الحداثة الآفلة، التي روت حكايات مزورة لرواقات مزيفة.. ثم انسلّت بعد أن رمتنا بدائها العضال.

نقول لهؤلاء: إن الفصول تتوالى، ولكن لا يمكنك الجزم بأن الحديثَ منها خير من الذي مضى.. إذ إنه لولا الشتاء لما كان الربيع، ولولا زهر الربيع لما كان ثمر الصيف، ولولا حرارة الصيف لما جفت أوراق الخريف.. فالحداثة الحقة إذن متوالية تتداخل عناصرها القديمة بالجديدة بالمستقبلية تداخل بناء واستيعاب واستنتاج، ثم تواصل مستمر بين أفكار الأجيال من خلال الاحترام المخترق لتنمية الاستمرار، المضيف أبداً إضافات متأصلة مؤسسة فوق الماضي والحاضر لبناء الأسعد من المستقبل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] لكن الأقلام غير المسؤولة (غارقة في ضجيج الحداثة) يخذلون عقولهم ليقولوا: لا يمكن بناء الحديث إلا بهدم ما كان، وإن التمسك بروح النص: ﴿كَانُواْ لَا

يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٩] جمود يوقف علمية التحديث والانفتاح على الآخر.. ألا ساء ما يزرون...!

ألا فليعلم هؤلاء وغيرهم: أن الإسلام دين سلام للنفس الإنسانية، ودين عزم وشموخ وقوة لحامله، ودين تقدم وتطوير وتجديد وتحديث للأوطان والمجتمعات، وحضن مانع من الخضوع والخنوع، وسياج حافظ من كل انحطاط، وذلك حين جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سمة مميزة لكل منتمٍ له فرداً كان أو جماعة.

ويجيبون على قولنا بلا فهم ولا تدبر ولا اتعاظ: إن هذا ضد الحرية، وهو جمود على القديم، وهو خطاب ظلامي ضد التقدم، ثم يقومون بفعلهم وسوء حالهم بنشر فواحش الفكر والسلوك والأنظمة في مجتمعاتهم، بحجة الانفتاح على الآخر والأخذ بروح العصر.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٩]، فما نراه اليوم من بوار في الأمة هو نتيجة لمناهج هؤلاء الضالة، ولكن الله لهم بالمرصاد، وحملة هذا الدين في عصرنا لهم بالمرصاد أيضاً: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٠].

فجند قلمك لنصرة الحق، مسؤولاً بالعدل محفوفاً بالعقول الواعية.

المبحث الخامس

بتزوير الكلام يهدمون الحصون ، وفيه :



أ- وقفة أمام قول الزور



قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ويمتد الهدي القرآني فينا طرقاً رحيبة، تملأ الأوردة والشرايين أخلاقاً خضراً، ما زالت تتمسك على – القلى العصري- بالمبادئ والقيم، رافضة دروب السياسات الأنانية المعوجة، التي تتلون لكل موقف بلون الغدر، بلون السلب، بلون الإلغاء، بلون القمع المزخرف بدم البراءة، بلون الوعظ المتزيي بزي بطرس القديم.. أتذكرونه؟!..

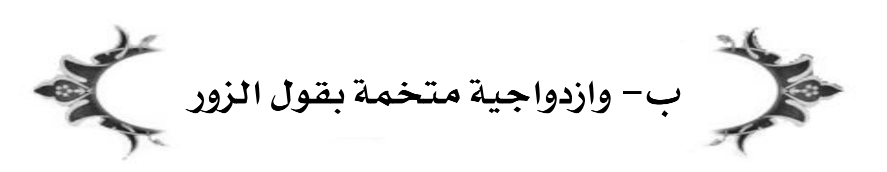
إنه ينجم اليوم بوجه حليق مغسول بماء الثعالب، محاولاً تغليف لافتاته المحملة بأنواع من دمار وهيمنة وعولمة ثقافة واحدة، تلوح كباقي الزحف الهمجي الذي اجتاح المدن الآمنة، والخصوصيات المكينة والثقافات الراسخة والأديان المقدسة، أرايتموه..؟! إنه ينظر إليكم من عليائه في واشنطن، في لندن.. في.. في.. يشهد شهادة زور على أنه العصر.. وأنه الوقت.. وأنه القدر الذي لا ترد إرادته، يظهر لكم من جديد في مئات، بل آلاف شهادات الزور، يريدها مثقفون وحاكمون وسياسيون ونخب وعامة، يحاولون بها دعم ومساندة شهادة الزور الأولى التي تسعى لمحو أمة مسلمة، من خلال إثبات أن ردات فعل المستضعفين وخلجات أجسادهم مسلوبة الحياة إن هي إلا الإرهاب، وأن فعل الدمار الشامل والسلب الدائم، وقتل الحياة المستمر، والاستلاب الأصفر القاتل.. تلك الأفعال جميعاً التي ذكرنا، والتي قام ويقوم بها الجلاد صاحب شهادة الزور الأولى، إن هي إلا فعل حضاري، فعل

حداثي، فعل إنساني، يبتغي منه الجلاد إنقاذ الضحية بالخلاص النهائي، وجعل الحياة خالية من كل ردة فعل، ولو كانت موعظة بكلمة.. فقد تجر هذه الكلمة جيلاً كاملاً إلى حضن الـ «لا» الإرهابية على حد زعم شهادة الزور..

وإذن فإن القضية الهامة تتمثل اليوم في وقوف الأمة بأكملها أمام الجملة القرآنية الفذة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ....﴾، والتأمل بمقتضياتها وأمداء تفاعلاتها، وفتوحات الالتزام بدعواها.. وذلك من أجل رد الغزوة التي تحاول ضرب أعز ما نملك من يقين، وأعصى حصن من حصون المسلمين، إنه الإيمان، ومن ثم العمل الفاعل الذي يبتغي إنقاذ البشرية، من الركض خلف الوهم ونحو الهاوية، يقودها إليها أصحاب شهادات الزور الأصليين منهم والتابعين القابعين بين أظهرنا، ممن فُتحت لهم الأبواب على مصاريعها للقول، رغم ضآلة الزاد الذي يحملون، وظلام الفكر الذي يختزنون، مع أنهم يسمون أنفسهم «بالتنويرين»، تلك التسمية التي لا يمكن صرفها إلا في باب كلمات الأضداد في لغتنا الجميلة العظيمة.

ولكن كيف تكون الوقفة لرد الغزوة، وللعمل من أجل إنقاذ البشرية؟ إنها لا تكون إلا باستلهام المبادئ القانونية العظيمة، وإلا بالأخلاق والسلوك النبوي الشريف، وذلك من خلال التمسك بالشهادة الحق مهما كلفتنا تلك الشهادة. وكذلك بنبذ شهادة الزور وأهلها، والإعراض عن لغوهم وفضولهم وكذبهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال عز من قائل: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال جلا جلاله: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وبيّن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم بجلاء ووضوح فداحة شهادة الزور، إذ قال

ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قلنا بلى يا رسول الله، قال: **«الشرك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس، فقال «ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت**- متفق عليه-، وقال ﷺ: **«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»**- متفق عليه-، والمتشبع هنا بلغة عصرنا الذي يظهر الفهم والعلم والصدق من الكتاب والسياسيين والمثقفين وهو على غير تلك الأحوال، فهو في الفهم تابع للآخر، وفي العلم ناقل بدون تثبت، وفي الصدق على حال لا يحسد عليه.. وأمثال هؤلاء هم بلاء الأمة، وسبب فساد أمرها، وتدهور مكانتها، وهم كثر هذه الأيام ينثرون شهادات الزور في كل اتجاه من على صفحات الصحف ومن الفضائيات والمحليات، وفي الكتب والمجلات والإذاعات، يحاولون بزورهم وكذبهم ترويج الهزيمة، وهدم الحصون، وذلك من خلال تناول الإسلام والمسلمين وحركات الإسلام، ورميهم جميعاً بما يرميهم به الأعداء، فهم بذلك «المداخل» التي تمهد للغزاة السبل، وتزيل الجدران والنتوءات التي ما زالت صامدة تدافع عن الأمة.. ألا فقفوهم.. إنهم مسؤولون عن الدمار والفرقة.. وتلك هي الأقلام المأجورة غير المسؤولة، ألا فليتوقف أولئك المخدوعون بأقوالهم عن مواقف الخذلان لثورات الحرية الماضية نحو النصر بإذن الله...



ب- وازدواجية متخمة بقول الزور

أولاً: مقدمة ضرورية:

يقول مارتن لوثركنغ: «لا يستطيع أحد أن يركب ظهرنا كائناً من كان، إلا إذا انحنيت وطأطأت أنت له» وهكذا فإن ما ينطبق على الفرد في ذلك ينطبق على الأمم والحضارات والثقافات، فلكل أمة حضارة وثقافة وعادات وتقاليد وأصول، تنحاز إليها، وتأخذ بواسطتها دورها بين الأمم، فتبقى بذلك متماسكة وقوية ومجتمعة وموحدة، حتى إذا حنت ظهرها، وبدأ ركوب مكونات وثقافات وعادات الآخر فوقها، راحت تتمزق الأمة بين الوافد والأصل، حيث تتردى شخصية الإنسان فيها، ويفقد هويته وأسباب قوته رويداً رويداً.. وذلك بفعل ما استجلبته إلى الأمة صنائع من بينها: إما منهبرة أو أنها مصنوعة بفعل الإغراء بعرضٍ من الدنيا قليل. فإذا رُوجع هؤلاء من قبل عقلاء الأمة المستمسكين بعناصر قوتها، وقيل لهم: إنكم بانحنائكم هذا تذهبون مع السَّفهِ لتبلغوا غايته، التي هي ركوب الآخر على ظهرنا، كان جوابهم حاضراً: لا بل أنتم السفهاء، الذين لا ترضَون أن ننفتح على الآخر، فنأخذ أفكاره المعاصرة. وهنا نقول: على مثل هؤلاء ينطبق قول الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

لقد دخلت على أمتنا وركبت ظهرها أفكار عديدة، مزقت وحدتها، وضيعت هويتها، باسم الانفتاح والعصرنة والتحديث من غير أن تعلم أن هذا الذي تأخذه

هو داء الآخرين وليس دواءً لأحد، وقد كانت فكرة فصل الدين عن الدولة والحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع فكرةً غربية بامتياز، نشأت وفرضت نفسها على الغربيين لأسباب موضوعية تاريخية، سببها توثين المسيحية، واحتكار الكنيسة ومجامعها للتفسير الديني، فضلاً عن إضافاتها المادية؛ إذ كانت الطامة الكبرى في مداخلات الكنيسة في العلوم التجريبية والكونية، مما اضطر الناس هناك إلى ثورة عارمة لفصل الكنيسة عن الدولة والسياسة ومناحي الحياة الأخرى.

وجاء المقلدون من بيننا، فدسّوا مفهوم: (فصل الدين عن الدولة) في أفقنا، وراحوا يكيدون له، ويسفهون كل من لا يرضاه من أشخاص وحركات، حتى أصبح له أتباع ودعاة، يملؤون فضاء وسائل الإعلام، بنداءٍ يحمل صيغة الإنقاذ.. وكانت تلك سفاهة ما بعدها سفاهة من هؤلاء الصنائع ومن تبعهم، دون أن يدروا أن هذا المفهوم تراكمت خلفه تواريخ وصراعات لا دخل لنا بها، ولم تمر وقائعها بنا؛ فديننا لم يكن في يوم من الأيام حائلاً دون تقدم الأمة علمياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً، بل كان دائماً هو الحاضر عند كل جملة إنقاذ للأمة، أو كلما أمسكت بها دواعي الجمود. وتاريخ أمتنا شاهد على ما نقول، ولكنه السَّفه والخَور الفكري، والانبهار الذي نزل على عقول فارغة، لو أنها استوعبت موجودات الأمة وإضافاتها الفذة، وأضفت عليها من إضافات الآخر الصالحة المنتقاة لارتفعت فوقها، وعلى أسسها مقامات علمية وسياسية واقتصادية عالية، لا تهمل الأصل، ولا تنسى النقل الصالح والدخول في العصر، ولجنبنا أنفسنا احتياجات الازدواجية الغربية في المعايير والتعامل، بعد إذ لم نَحْنِ الظهور لهم.

ثانياً: مثالان على ازدواجيتهم:

إن هذا الانحناء هو السبب الأول في ذهاب الغربيين ضمن ازدواجية المعايير تجاه الآخرين، إذ عندما بنوا كل مناهج الحياة عندهم فوق قيمة الاستعلاء على الآخر، ومركزية حضارتهم بالنسبة للعالم، اتجهوا باتجاه أنهم هم الأقوى والأقدر، الذين يستحقون الحياة، ويستحق غيرهم: إما الموت وإما التبعية الكاملة لهم، فلما اصطدموا بآخر يحمل من عناصر الحضارة أساسات متينةً متقدمةً، وكان أصحاب هذه الأساسات متمسكين بها تمسكاً مقاوماً لموجة الإفناء التي تواجههم، اضطروا حينئذٍ أن يبرزوا أنياب الأصول المتوحشة الداروينية المادية، بعد أن كانوا قد لمعوا وجوههم، ولبسوا (البدلات) الفاخرة، وربطات العنق المشرقة، وحملوا في خطوطهم الأولى لافتات حقوق الإنسان والديمقراطية والحداثة، وبعثوا أمامهم بالصنائع يمهدون لهم الدخول، ومن هؤلاء كاتب مغمور، نصَّب نفسه في إحدى الصحف العربية المهاجرة عدواً للحركة الإسلامية، مدعياً في إحدى مقالاته أنها تنام مع الشيطان الأمريكي الإسرائيلي، مع أنه هو الذي يفعل ذلك بامتياز، مسقطاً فعله وحقده على الحركة الإسلامية، متسلحاً بالكذب والافتراء. ومن الأمثلة التي يمكننا في هذه العجالة أن نذكرها وهي تخص الازدواجية مثلان:

١- ادعاء الديمقراطية والحرية الذي خرقوا به آذان الناس شرقاً وغرباً، وطمسوا بواسطة ذلك الإدعاء، أي سبب آخر من أسباب التقدم والارتقاء، هذا الإدعاء لازمته الازدواجية في التعامل به مع الشعوب الأخرى المرهقة بالميديا الغربية، وبدعاتها المدعومين داخل صفوف الشعوب.. قد تقول لي كيف كان ذلك..؟ وأقول لك: انظر إلى الساحة العالمية اليوم في كل مجالاتها فماذا ترى؟ إنك لن ترى إلا قمعاً لاختيار الشعوب، مع الضجيج

العالي لميديا الديمقراطية والحرية وحق الإنسان في الحياة وحرية الاختيار، ومن يحيد من الشعوب في اختياره بعيداً عن النموذج الغربي، سواء في التعليم، أو في الاقتصاد، أو في اختيار العلمانية أو الليبرالية أو اقتصاد السوق أو الطريقة الغربية في إدارة الحياة السياسية، وغير ذلك يجد السبل أمامه مغلقة بمجلس الأمن، وبالبنك الدولي، وبصندوق النقد الدولي، وبالاستثمار الأجنبي، وبالخصخصة، وبالعولمة، وبالشركات العابرة، وبمنظمة التجارة العالمية، وبالاتحاد المتوسطي، وبالشراكة الأوروبية، وبمؤسسات الأمم المتحدة الخاصة بالسكان وشؤون المرأة والأسرة.. فإن لم تُجْدِ هذه الوسائل كلها في ليّ عنق النص المحلي لشعب ما.. وجد الطائرة والدبابة والمدفع والحصار في مواجهته حتى يستسلم، أرأيتم هذه الديمقراطية كم هي مستقيمة.!؟

٢- من حيث ادعى الغربيون أن حربهم على الإرهاب هي حرب لإيجاد السلام العالمي والأمن للعالم، ذهبوا في كل اتجاه لنشر الإرهاب الرسمي، والقتل الجماعي، فحولوا كثيراً من بقاع الأرض إلى دمار ومجازر وإرهاب: في العراق، في فلسطين، في أفغانستان، في أمريكا الجنوبية، في الشيشان، في كشمير، في الجزائر، في سورية، في مصر، في اليمن.. وغيرها.

إن ازدواجية المعايير في كل الحراك واضحة لا لبس فيها؛ إذ كيف يكون أمنٌ للعالم، وآلةُ التدمير، وفكر الاحتلال والحلول مكان الآخر في فلسطين مستنسراً ظالماً هما السائدان في الفعل الغربي..؟ وكيف يمكن التوفيق بين ادعاء تحرير العراق وبين تدميره بحرب لا تنتهي مجازرها بدعوى بنائها؟ وكيف يمكن الاقتناع بأن الغزو الغربي لأفغانستان هو حرب على الإرهاب من أجل بناء أمن أفغانستان، وهم

يدمرون كل مقومات السلام والتفاهم في ذلك البلد..؟ إنها ازدواجية مقيتة حولت العالم إلى مكان خطر، في الوقت الذي يدّعون فيه السعي لأمن العالم: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]؟ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]؟ ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[آل عمران: ١١٨]!. إنه لا بد للمسلمين والحال كذلك أن يعودوا إلى رشدهم، ويستمسكوا بأسباب قوتهم، وموحد هويتهم (الإسلام) ليتمكنوا من نصب ظهورهم، لترتفع قامتهم، فتقف لهذه المهزلة الغربية المتغطرسة المعتدية، فلا يعودون يحنون الظهور للركوب.



الالتحاق بالآخر بلا استيعاب ولا تمحيص تزوير محض

وها هي كلمات القرآن تنبض بالخلق الرفيع، تزرعه في قلوب الناس، لتودعه أفئدتهم وجوارحهم سلوكاً وقناعة وعملاً، كي تصنع من العلاقة بينهم مجتمع النور، ترسمه بأغلى القيم، وتخطه بأجمل التواصل، وتبنيه بوحدة العزم الموشى بالخلق الرفيع والخير العميم والحب الوفير، تتهادى جميعها بين أعطاف الإنسان، الذي تخلص من غرور إدعاءات العصر، ومن «فهلوات» بعض أهله الذين راحوا يصفون التلون في المواقف قيمة متخلصة من «الأيديولوجيا»، ويعنون بها الدين عامة والإسلام خاصة، ويصفون تقليد الغير الأعمى تنويراً نابذاً فكر الظلام، ويعنون به الالتزام بهدي هذا القرآن، وذلك لأن شجاعتهم جعلتهم يمتطون الجبن وسيلة للتخفي خلف الكلمات الغادرة المزورة.

إنهم أولئك القوم ←—— الشقي بهم جليسهم وقارؤهم والمستمع إلى كلماتهم، باعوا أول ما باعوا أشخاصهم بحفنة من عرض الدنيا قليل، ثم باعوا انتماءهم وهويتهم، وبعد ذلك راحوا يدبجون الهراء، مسوغين به انحرافهم ورخص أثمانهم، وعقيم خلقهم، ودنيء سلوكهم، الذي اتسم أكثر ما اتسم بالقيام بأداء شهادة الزور في كل المقامات، وخصوصاً في مقام الشهادة على أهلهم وأقوامهم وفكر وعقل أبناء جلدتهم، مستعيرين في القيام بتلك الشهادات شتى الكلمات والجمل والتوجهات المملاة عليهم، حيث قضوا في مدارس الأعداء عمرهم،

يتلقون كل مرذول من القول، وكل قميء من الفكر، وكل زائف من المصطلحات والفلسفات؛ فهم في حالهم ذلك حال من وصفهم الشاعر المرموق بقوله البليغ:

خالصاً من تكلف القول بين الناس من جاهل ومن مفتون

كلهم يحسب الحياة أقيمت من متاع على أساس متين

غرهم مظهر الحياة وما يدرون معنى جمالها المكنون

وليكون كلامنا هذا له دلائل عملية قولية، نتجه إلى صحافتنا العربية لنجد فيها العجب العجاب من الأدلة الفاضحة على فكر الإلحاق أو الالتحاق، فكر الببغاوية في ترديد ما يريده من يرغبون في تدمير هذه الأمة من خلال جرها جراً إلى الإيمان بأن الغرب هو الحضارة وهو النور وهو العلم والتقدم وهو الإقلاع إلى المستقبل الناجح.. وأن هذه الصحوة الإسلامية المباركة التي أخذت تعيد الحياة في أوصال الأمة شيئاً فشيئاً إن هي إلا ارتداد إلى الخلف، وهي في تأجيجها الغضب ضد المعتدين الأمريكان والصهاينة ليست إلا معولاً للقضاء على المصالح الوطنية ولنقرأ لأحد هؤلاء ما كتبه في جريدة الشرق الأوسط ١٥/ ١/ ٢٠٠٣ إذ يقول:

«إن ما يؤجج الغضب المصري تجاه أمريكا هو سقوط المجتمع المصري في أيدي الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية المتطرفة»!!: فهل بعد هذا الكلام من تطرف..؟ وهل هناك أشد منه تزويراً للحقائق وكذباً على الناس..؟ وهل يكتفي هذا (الكاتب..!) -إذا جاز لنا أن نسميه كذلك- بهذا الزيف؟ فيقف عند حدٍّ محدود من شهادة الزور على مجتمعه ودولته المصرية..؟.. لا .. إنه يمضي في خدمة الترديد الببغاوي لفكر الهدم والظلام، ليصل إلى القول بأن ما سماه بـ «تديين المجتمع»!!؟ هو وهي كلمات تعلمها ولُقنها من لدن أساتذته وأرباب عقيدته.. إنها

«تديين المجتمع»، ذلك الخطر الداهم الذي تقرع الطبول اليوم من أجل إيقاف زحفه على مجتمعات المسلمين، لأن انتصار مثل هذا الزحف يوقف زحف الهيمنة، وموج محاولات سلب الأمة هويتها وثرواتها النفطية، ومواقعها الإستراتيجية الهامة في قلب هذا العالم. وهي الحقيقة التي يحاول هذا وأمثاله تغطيتها وطمسها بطلاسم الهذيان الالتحاقي.

وليس هذا فحسب بل إنه في الجريدة نفسها وبتاريخ ٢٠/ ١/ ٢٠٠٣، حاول أحدهم قراءة فكر سيد قطب رحمه الله بعيون أمريكية، محاولاً التقليل من قدر الرجل بوصفه رجلاً كان يعمل في مكتب طه حسين، محاولاً المقارنة بين انتشار فكر سيد قطب الكبير بين الناس وبين فكر طه حسين ورفاعة طهطاوي الذي بقي في مكانه ولم يحرك ساكن المجتمعات العربية.. متناسياً أن تبشير هذين بما انبهرا به من فكر الغرب قرأه الناس عملياً في وحشية الغربيين أثناء استعمارهم لمصر وللهند ولغيرهما من بلاد المسلمين وفي نهبهم لثروات الأمم وقمعهم لكل رأي آخر، وجعلهم الحضارة الغربية هي الأول وهي الآخر، في حين قرأ الناس قول سيد قطب مناشداً الناس في الشرق لينهضوا: «أيها الشرق فانفض عنك رجال الماضي الضعفاء المنهوكين وأبرز نفسك للميدان فقضايا هذه الأيام لا بد أن تعالجها الشعوب» قرأوه قراءة من عانى وحشية هذا الغرب المتظاهر بالحضارة والعلم والتقدم، قراءة من يشاهد عياناً سياسات المثال الغربي الهادفة إلى الإفقار والتجهيل والهيمنة وشطب الآخر نهائياً بالقتل والنفي والتشريد والتهميش والاستلاب.. أيستغرب من سيد قطب أن يصف هذا الغرب بالوحش ونحن نشاهد وكيله الصهيوني يقتل ويهدم ويخرب وينفى ويشرد في فلسطين يومياً، أيستنكر أحد على سيد قطب وصفه لهذا الغرب بمهزلة المتناقضات حين هدد العراق والأمة كلها

بالدمار والموت من أجل احتمال وجود أسلحة عنده في حين أنه يغض النظر بل ويدعم ويساند بالمال والسلاح والإعلام والسياسة الغدر الصهيوني في فلسطين وتخزينه لأكثر من ٣٠٠ رأس نووي، هذا عدا عن السلام البيولوجي والكيمائي الوفير لدى الصهاينة؟! أيستكثر على سيد قطب أن يهيئ أمته لمواجهة فكرية عصريةمع هذا الغرب الأمريكي والأوروبي الذي يزحف بالموت على أجزائها، وهو يرى وينظر كيف أن هذا الغربي «المتحضر»! أفنى شعباً كاملاً من الهنود الحمر ليحل محله ويسطو على أرضه وثروته ووطنه، وكيف أجرى حربين عالميتين خلال ٢٠عاماً أفنى فيهما ما يقارب المئة مليون نسمة وهدم المدن العامرة، وخرب الأوطان والعمار.. وكيف أنه سطا على شعب فيتنام فهدم عماره وقتل ثلاثة ملايين إنسان من بشره من أجل شهوة السيطرة والهيمنة على مقدرات الناس هناك..؟! إن السيد قطب لم يتكلم من فراغ، وإن الغربيين أنفسهم يعلمون تمام العلم تلك الأصول البربرية التي تجري في دمائهم، نتيجة تواصلهم النَسَبي مع تلك القبائل التي جابت أوروبا في العصور الأولى وهي تحمل الدمار.. فلا يغرنكم علم بلا خلق، وتكنولوجيا بلا قيم، ونظم بلا إنسانية.. وشهادات زور تغضب الرب وتخرب الذمم ولا يهولنكم بقاء هذه الشهادات تتكاثر في الأفق، فإن الحق قمين بقهر سجنها وتفتيت تجمعها ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].



د- إلصاق الالتحاق بالتقدم تزوير

وإكمالاً لموضوعات تزوير الكلام والالتحاق بالآخر نقول:

للكلمات حدّان؛ حَدٌّ ككتاب يطيب في مطالعته السهر، وتهيم في أحاديثه الفِكَر، وتختزن كلماته التاريخ والعبر، وتترنم بمقولاته آفاق المقل، ويجوس الخيال العادل في خلواته والدرر، يرنو بعينيه إلى الأصيل والمستحدث بخصوصية الثقافة والهوية، غير منفك عمّا اختزنته طول السير، ولا منشغل عمّا يدور في العصر من جنىً سائغ مستطر، جامعاً طرفي المعادلة، في صورة أريبة، تحاكي مخزون العقائد والشرائع، عصرية الفهم والاجتهاد، بغير اعتساف ولا إلحاقٍ بالآخر المتربص لحظة استدراج، تُهديه استلاب القاصين الأمرّ.

وحدٌّ رفيق الغربة والخلط بين التقدم وعمى الاتباع الحرفي، الذي ينمو في وهج الانبهار بالآخر، وتلك هي الدونية، التي ترافق حياته، وتحدد مقامه، حرفاً مرذولاً، مدنس الأعطاف، معيداً ببغاوية حرف الآخرين وكتابهم الحياتي، الذي يضج بالعنجهية والصلفية والاستكبار والاستلاب للآخر.

وضمن هذا الحدّ الثاني، نقرأ لبعض الكتاب سطوراً تقول: منطق التحليل الإسلامي للأمور والأحداث منطق ساذج تبسيطي، خارج عن منطق العصر وثقافته الفكرية والسياسية والاقتصادية، ومن منطلق القول هذا يذهب الكاتب نفسه إلى دحض تقسيم الناس إلى مسلمين مؤمنين وإلى غير مسلمين، ويعدُّ هذا التقسيم تغييباً للثقافة الحقة- برأيه – القائلة بتقسيم العالم- إلى عالم من الأغنياء

وعالم من الفقراء، وهو بهذا يعيدنا للدندنة حول فكر وثقافة الطبقية الماركسية، التي انهزمت، مؤكدة مصادمتها لمنطق العقل والواقع الحياتي.

ولا نظن أن مثل هذا الطرح في هذه الأيام إلا صادراً من اتجاه، (وجدله مجالاً واسعاً في وسائل الإعلام) يصر على استبعاد ثقافة الإسلام والإيمان من الساحة، ولو باستبداله بأي ثقافة مهترئة مهزومة غير مقبولة، وفي سبيل تأييد هذا الطرح الثقافي والفكري الذي يطرحون، يقولون: إن تحليل الأحداث على أساس أن الظلم المحيط بأمتنا كان بسبب إسلامها وإيمانها، وأن توجه الآخر للانتقام منها والسيطرة عليها كان من أجل ذلك، إن هو إلا عملية إلهاء للناس عن السبب الحقيقي والتحليل الصحيح اللذين يتمثلان في معيشتهم المتردية وفقرهم وتدهور أوضاعهم الحياتية.

إنهم يحاولون تغطية الشمس بغربال مخروق، وكأن دعوة الأمة للتمسك بإسلامها وتحليل الأحداث على أساسه، يلهي الناس عن معالجة مشاكلهم الحياتية، من فقر وجهل وتخلف وظلم وقهر، في حين أن الجميع يعلم أن الإسلام هو الدين الأعظم اهتماماً حثيثاً بأوضاع الناس الحياتية، فقد خصص لها القرآن النصوص العديدة، وبين الرسول ﷺ في قوله وعمله الكثير الكثير من عناية الإسلام بالعدل في توزيع الثروة، والعدل في الحكم، والحض على التعلم، والعناية القصوى بالفقراء وإصلاح حالهم ويكفي في هذا السياق أن نذكر حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «ما آمن من بات شبعاناً وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم»، وأن نذكر بعض أدبيات الإسلام المعروفة المشهورة في هذا المجال، من مثل:

- كاد الفقر أن يكون كفراً.
- لو كان الفقر رجلاً لقتلته.

- أغنى عمر بن عبد العزيز الناس حتى لم يجد القائمون بأمر الصدقات من يأخذها في عهده.
- عجبت للفقير الجائع كيف لا يخرج حاملاً السيف لتحصيل قوته، (أبو ذر).

إنها ثقافة الإسلام المتميزة، وليست ثقافة البطون والعلف، التي تعيد أسباب مشاكل العالم إلى حاجات الجسد والحسد والضرورات الدنيا؟

إنها ثقافة الإسلام والإيمان المتوازنة الوسطية التي تجعل الإنسان إنساناً بمعنى الكلمة وأبعادها وعمقها؛ وليس الحيوان الذي تحركه غرائزه الأرضية ويثيره منظر العلف لدى الآخرين، فيثور الدم في عروقه، ويتحرك بالهدم والهيمنة بلا رادع من قيم ولا من مبادئ أو مرجعية حضارية حقة، إلا مرجعية الرفاه، التي توجه إلى امتلاك كل شيء في يد الآخر، وإثارة الحروب وإحداث الدمار من أجل ذلك.

وقد كان هذا ديدن الحضارة التي يدعوننا إليها، وينادوننا: أن هلموا إلى مائدتها الثقافية والفكرية، وإلى تحليل الأحداث بمنطق عصرها، وإلى الاتباع والتقليد لها دون انتقاء ولا استيعاب، وقد يعلم هؤلاء أن هذه الحضارة بجميع أوجهها الشيوعية والرأسمالية واليسارية، كانت خلال القرون الثلاثة الأخيرة الموجه والموجد للاستعمار وحمامات الدم والمجازر، وعمليات سلب ونهب الشعوب والإثراء على حسابها، كما كانت الموقد الأول لحربين عالميتين خلال ثلاثين عاماً دمرتا العالم وقتلتا عشرات الملايين من البشر هذا فضلاً عن الحروب التي كانت مستمرة وحامية في أوربا من قبل، وفضلاً عن حروب الإبادة للشعوب في كل من القارة الأمريكية وأستراليا وآسيا على يد أهل هذه الحضارة التي صنعت منطق هذا العصر الذي نُدعى للالتزام بمصطلحاته وتحليلاته.. فهل نلتزم..؟ أم نقول حقاً

وعدلاً: إن لدينا خصوصية وأصولاً في التحليل ومنطقاً في الفهم والتقسيم، يتلاءمان مع وضع الإنسان في المكان الذي أراده له خالقه، الأعلم بما يصلحه ويسعده..؟

وهذا لا يمنع من انتقاء الصالح من عند الآخر واستيعابه في ساحاتنا لابساً لبوسنا، خادماً أفقنا..صانعاً أقلاماً مسؤولة تدعو إلى الخير الأصيل وإلى الاستيعاب المستنير.



هـ- نماذج من التزوير

ومن المناسب في هذا السياق أن نعرض نماذج من التزوير فنقول:

لقد كان التخويف من الفكر الإسلامي والبناء فوقه عصرياً العصا السحرية، التي ساق بها الغربيون العديد ممن سموا بالمفكرين أو النهضويين أو مدعي تحديث العقل العربي إلى ساحة معاداة هذا الفكر واعتباره ماضوياً غير صالح لزماننا. ولم يكتف هؤلاء بالدعوة إلى إقالة التراث من حياتنا المعاصرة، بل إن البعض منهم تعدى ذلك إلى النص المقدس، فحاولوا يائسين تنزيله إلى مكانة النص الأدبي أو الفكري أو التراثي الذي يحتاج إلى مراجعة، وعرضه على الواقع البئيس الذي تعيشه الأمة، وكأنهم بذلك استعاروا خرافة نهاية التاريخ «الفوكويامية»- التي لم تصمد وقتاً طويلاً حتى أحالها الوضع العام إلى مزابل التاريخ-، فعدّوا واقعنا الحالي المتخاذل نهاية تاريخنا، الذي لا قيام لنا بعده إلا بإعادة النظر في مصادره من الكتاب والسنة، وبناءً عليه راحوا يخوفون الأمة من الانتماء أو الاتكاء على الماضي، بما فيه الكتاب والسنة، ما لم تتجه إلى توافق على فهم عقلي حداثي لهما، مستمد من فكر غريب عنا، لا يصمد أمام الحق الناصع.

نموذج أول: يَعُدُّ الديمقراطية هي العصا السحرية، التي ستأتي بكل أسباب النهوض والتقدم والتحديث، وجميع هؤلاء الماضين في التمسك بهذا الكلام يَنْعَون على الحركات الإسلامية بُعدها- في معظمها- عن الديمقراطية، وهي بناءً على ذلك لا تصلح أن تقوم مقام قيادة النهضة والتقدم والتحديث، حتى أن بعض هؤلاء يشككون في نوايا العديد من الحركات الإسلامية وتوجهاتها نحو الديمقراطية

الداخلية والخارجية. ويقولون عن هذه الحركات: إنها تلجأ إلى الديمقراطية ليس كقيمة في حد ذاتها، وإنما من أجل التحكم بدفة الصراع الداخلي، من دون أن تتجذر فيهم قيم الديمقراطية وممارساتها، وفي حين أن هؤلاء يعدّون إجراء الانتخابات الدورية على كافة المستويات الداخلية لأية حركة، هو الذي يُدخل تنظيمها الحركي في دائرة الانتماء للديمقراطية الحقة، فإنهم يُخرجون من هذا الانتماء وبصورة انتقائية غير علمية ولا واقعية العديد من الحركات الإسلامية، ويُدخلون فيه حركات أخرى، مع أنّ هذه الحركات من الطرفين تمتلك لوائح داخلية، تجري على أساسها الانتخابات بصورة دورية، وبأعلى أشكال الديمقراطية التي لا تستخدم المال ولا الإعلام (كما هو جار في الديمقراطيات الغربية).

وكمثال على الانتقائية غير العلمية، البعيدة عن الواقع والموضوعية، تصنيف الكاتب (خليل العناني) في (الحياة اللندنية) للحركات الإسلامية على ضوء تمسكها بالديمقراطية أصنافاً لا تَمُتُّ إلى العقلانية ولا إلى الموضوعية بصلة، فأنت لا تكاد تُصدق تفريق هذا الكاتب بين ديمقراطية العدالة والتنمية المغربي، عن ديمقراطية الإخوان في مصر أو في الأردن أو في سوريا أو في غيرها.

والسؤال هنا: كيف تأتى للكاتب العناني أن يقول عن حركة الوفاق الإسلامية البحرينية: إنها تتمتع بمرونة وتوازن من خلال لائحتها الداخلية، وهو صحيح بالنسبة لهذه الحركة. وفي الوقت نفسه يُخرج حركات الإخوان – بالذات- من هذه الحالة ليقول: إن الانتخابات في هذه الحركات الإخوانية تبدو كما لو كانت أداة ناجعة لحسم الصراع بين أجنحة الحركات المختلفة.

ولا نرانا بحاجة إلى كثير من التأمل لنَرُدَّ على هذا الكلام؛ إذ يكفي أن نقول: إن الانتخابات في العالم كله هي أداة لحسم الاختلاف- ولا نقول الصراع- بين

مختلف الرؤى للحراك العملي. فلماذ يريد الكاتب للحركة الإسلامية أن تكون بدعاً في هذه الصيغة الديمقراطية المبنية على الفصل بين الرؤى باختيار الأكثرية.

وقد وجهنا رسول الله ﷺ إلى مثل هذا منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وذلك من خلال أعمال كثيرة، نضرب عليها مثلاً (الشورى) التي كانت قبيل معركة أحد؛ حيث شاور الرسول ﷺ أصحابه في مكان المواجهة مع قريش، فكان هناك رأيان: رأي يريد أن تكون المواجهة خارج المدينة- وهو الأغلب-، ورأي كان يُفضل المواجهة من داخل المدينة، وقد أخذ رسول الله ﷺ برأي الأغلبية.

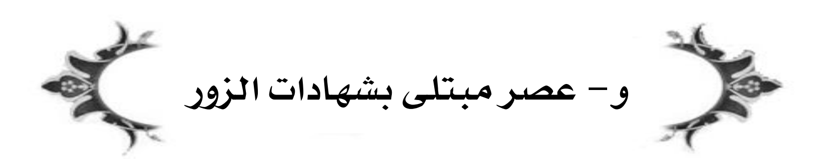
إن الانتقائية العوجاء واضحة فيما ذهب إليه الكاتب العناني، وهي انتقائية لا يدعمها العقل ولا الواقع ولا اللوائح التي تجعل من الإخوان في داخل تنظيماتهم في أعلى منظومة الديمقراطية من حيث الشكل، ومن حيث المضمون، تتمثل بانتخابات نزيهة تجري على كل المستويات دورياً بلا مداخلات المال والإعلام.

نموذج ثان: وهذا النموذج ينعى على الإسلاميين أنهم يريدون فرض رأيهم على الناس بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وذلك دون أن يكون الناس متجهين إلى ذلك. ونحن نقول لهؤلاء الملتزمين بالعلمانية قبل الديمقراطية: إن الناس- وبغض النظر- عن انتماءاتهم الدينية والعرقية، يريدون العدل والحرية والحياة الكريمة، الخالية من الاستبداد والذل والقهر والفساد والفقر، ويريدون الحكم الصالح القوي الذي يُخلصهم من الذين يحاولون الهيمنة، وإن الناس في بلادنا العربية والإسلامية- بغالبيتهم العظمى – يعتقدون أن الإسلام والالتزام بشريعته كنص رئيسي في تقنين حياتهم هو الموصل إلى هذه القيم والمبادئ السامقة.

ولقد برهن على ذلك التوجه للناس استطلاع للرأي أجرته مؤسسة (غالوب) في بعض بلدان الإسلام، وشمل خمساً وثلاثين دولة، أو تجمعات سكانية كبيرة من

المسلمين، وقد نشرت نتائج الاستطلاع بكتاب عنوانه (من الذي يتحدث باسم الإسلام وما الذي يفكر به أكثر من ألف مليون مسلم)، وفي هذا الاستطلاع قال تسعون بالمئة من الشعب المصري بتأييد تحكيم الشريعة الإسلامية، وقال تسعون بالمئة من المُستَطْلَعين المصريين بأنهم يريدون أن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الوحيد للتشريع. كما قال سبع وتسعون بالمئة من المصريين: إن الشريعة الإسلامية توفر العدالة للمرأة، وقال ست وسبعون بالمئة من الإيرانيين، وسبعون بالمئة من الأتراك بمثل هذا الرأي. وبصورة عامة فقد كشف الاستطلاع الذي استمر إجراؤه ستة أعوام، والذي حلل نتائجه، وقام على مجرياته كلٌ من: «جون اسبوزيتو» مدير مركز التفاهم الإسلامي المسيحي في جامعة «جورج تاون»، والدكتورة «دالية مجاهد» مديرة مركز «غالوب»، إن الأكثرية الساحقة من الناس في مصر وإيران وتركيا، يعتقدون أن الشريعة الإسلامية يجب أن توضع كأحد أهم مصادر التشريع في بلدانهم.

وبناءً على ما تقدم نقول لأصحاب هذا النموذج: إن الإسلاميين لا يفرضون رأياً على أحد من المسلمين، وإن الحركات الإسلامية التي يقوم على إدارتها وحراكها أناس من هذه الشعوب المسلمة يعلمون تمام العلم ومن اعتقادهم هم- بصورة خاصة- بصلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، وبأن هذه الأمة لن تصلح ولن تتقدم ولن تتحدث إلا من خلال تفجير طاقاتها المستمدة من هذا الدين، الذي رسخ في العقول والقلوب على مدى أربعة عشر قرناً، وأن على هؤلاء أن يفهموا أن كل محاولاتهم لإبعاد الأمة عن هذا الدين ليست إلا محاولات بائسة بائرة خاسرة، فلا يخوفونا مما خوفهم منه الغرب، وصدق الله العظيم القائل في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وإنها لأقلام غير مسؤولة.



و- عصر مبتلى بشهادات الزور

أمثلة:

من أسوأ ما ابتلي به العصر من تجليات في مجتمعاته دون استثناء تزوير الشهادة في كل شيء، وفي كل مجال من مجالات الحياة، حتى غدا اتباع الباطل يُزوَّرُ فيسمى: (وجهة نظر)، وصارت خيانة أمة من الأمم تسمى واقعية وحسن تأت ودبلوماسية، وزورت القيم الإنسانية، واختُرِقت روحها بشعارات ولافتات معظم ما سُطّر فيها مزور محرف، لا يفهم منه الإنسان إلا خلافه، وأخيراً وليس آخراً ازيّنت الحرب على الإسلام والمسلمين بعنوان ولا أشد تزويراً وافتراءً؛ إذ ذيل متعهدو الحروب والإجرام العالميين، ومقاولو تدمير الكيانات الدولية والمحلية فعالهم وأقوالهم بتوقيع: (الحرب على الإرهاب، وإنهاء ثقافة العنف). ونحن ندري أن ما يفعلونه هو الإرهاب بعينه، والعنف بلحمه ودمه، والعدوان والظلم والظلامية بعينيهما، كما أننا ندري أن كل ما جرى من عنف أو إرهاب على يدي بعض من الأفراد الضحايا، إنما كان سببه وأهم دواعيه الظلم والافتئات على حقوق البشر، ومحاولات الهيمنة على الجميع، والاستئثار بممتلكات الناس في كل أرجاء الأرض، وذلك على خلفية أنانية حادة من مقاولي الحروب، ومتعهدي التدمير للإنسان، الذين يتركز وجودهم بصورة مكثفة في الغرب، وفي أمريكا بصورة خاصة، وقد بهرجوا احتفاءهم بالحرب على الإسلام وأهله بتلك اللافتة التي ذكرنا، ولو أنهم نظروا إلى أيديهم وبطشها، وأرجلهم المتوحشة ودَوْسِها، وإلى أبصارهم وكيف ترنو وتطمع، ثم أنصفوا في رؤيتهم، ونطقوا بالحقيقة، لوجدوا أن الإرهاب والعنف هو

صنيعهم الأول، وهدفهم المكثف، الذي يتخذونه وسيلتهم للوصول إلى الغايات الدنيئة، التي تقع في قعر البئر الإنساني، ولوجدوا أن ما يفعله الآخرون المدافعون عندما يخطئون في بعض الوقائع والأحداث، لا يشكل نقطة في بحر أخطائهم وخطاياهم، لقد أتت الشهادات للمعتدين؛ (المقاولين والمتعهدين) طائعة كما يحبون، منطلقة من بني جلدتهم، وأحياناً كثيرة من أعضاء مدسوسين على أهل الضحايا، فكانت في أشد حالات التزوير والتحوير والبعد عن الحقائق والوقائع، بعيدة بعد السماء عن الأرض عن صيغة الحق والخير والنماء، التي قررها رب العزة للإنسان، لتأرز به في حياته إلى ملاذ آمن، وهي تتمثل بقوله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥]. تلك أمة قد خلت، متبعة صبغة ربها، فملأت الأرض قياماً بالقسط وشهادة لله، وزينت عيون التاريخ بأمثلة فذة من العدل والشهادات الحقة، والحياة الشريفة النظيفة، على ما كان يمر فيها من هنات وارتكاسات.. وها نحن اليوم نرى أمة غربية ممتدة أرضها ونفوذها ومقولاتها في أنحاء الأرض، وإنك لتنظر فلا ترى بعينك إلا تجليات الظلم، وشهادات الزور تعبث بالأرض في كل المجالات، محاولة التغطية بها على الدمار المادي والمعنوي، الذي تحدثه في المجتمعات البشرية. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾[الروم: ٤١]، وهو فساد طمّ عمّ، فشمل السماء مع البر والبحر، فهذه المظاهر من غزو الفضاء المرائية بالعلم ومحاولة الكشف، ليست إلا بعضاً من محاولات العدوان، تريد تركيز قواعد فتك، ومراكز انطلاق جديدة للهيمنة إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو أن هؤلاء أرادوا خيراً للناس، لبدأوا بالأرض، فدفعوا عنها شر التغير الحراري، والتلوث الكوني، الذي كان نتيجة أطماعهم ومبادئهم في إغراق السوق بالسلع،

وإطلاق مصانعهم حتى آخر نفس فيها، لتنفث جحيمها في سمائنا، وتلقي بفضلاتها في تربتنا ومياهنا، لنعيش هاجس الأمراض والأعراض الخبيثة.

لقد أصبحت أجواء العالم اليوم مذخورة بالزور وشهاداته، وبتزييف الحقائق وتحريف المبادئ، معبأة بالظلم والظلامية، في حين يطلع علينا أهل تلك التعويمات لكل ذلك التزوير بقولهم: إنهم يريدون إنقاذ الناس، أرأيتم إلى أي مدى ذهبت تجليات شهادات الزور في عالمنا؟! فلا تهولنك أيها الإنسان شهادة للزور مثل شهادة سمعتها بأذنيّ من أحد الرؤوس الجهال في أمتنا، الذين يدّعون الثقافة والعلم، (سيد القمني) إذ يقول في برنامج بثته قناة الجزيرة منذ زمن: بأن عمرو بن العاص، ومن جاء بعده من حكام المسلمين؛ (عثمانيين ومماليك وأمويين وعباسيين)، هم محتلون لمصر، أخذوا الجزية والخراج مقابل حماية المصريين، ولكنهم لم يفعلوا لمصر شيئاً، واهتموا بقيانهم والغناء والقصور، وتركوا الشعب المصري.. ويختم هرطقاته ليقول بالعامية الركيكة المقيتة، مخاطباً الفاتحين المسلمين: جئتم فاتحين لنشر الإسلام (مارحتوش ليه).. لماذا بقيتم حكامنا؟). ويؤيد قوله هذا بهرطقة خرافة، تقول: (لا خلاص لنا إلا بالأخذ بالمناهج الغربية في التفكير دون انتقاء، حتى لو نسفت هذه المناهج ثوابت الأمة).

إن هذا الجاهل المتعالم يذكرني بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالماً واتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» وهو حديث صحيح أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري – المجلد الأول (كتاب العلم ص ١٩٤ مروياً عن مالك والبخاري ومسلم وغيرهم.

أو كما قال ﷺ: لقد وضع الجاهل نفسه في مكان المخلص للأمة، فطلب منها اتباع ما يزيلها من الوجود، لتكون تابعة ذليلة، تتعلق بأذيال الآخرين، وتخض في آخر الركب من العالمين، بينما قام عمرو بن العاص – رضي الله عنه- يحمل منهج الإسلام الفذ- بإنقاذ المصريين من العبودية للرومان، وجعلهم يحكمون أنفسهم بإشرافه، فوصل العدل في دولته إلى ما فعله الخليفة أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه- بابن الأكرمين ابن عمرو؛ حيث استقاد للقبطي ابن الشعب المصري منه. وكان هذا التصرف والمنهج كفيلين بتحويل مصر إلى العربية وإلى الإسلام بلا إكراه، وهي بذلك دانت باختيارها لحكم الإسلام الراشدي، ومن جاء بعده، مثلهم في ذلك مثل من دان له في الجزيرة العربية والعراق والشام وغيرها.. وهي التي كانت تحكم من قبل دول استعبدت شعوبها، وأذلت أبناءها، فلم يحررها ويطلق أيديهم ومبادراتهم ومشاركاتهم بحرية تامة إلا دولة الإسلام.. التي قال خليفتها الأول أبو بكر – رضي الله عنه وأرضاه-: «أيها الناس لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني».

وقال فيها العالم الفاضل الزاهد العابد عبد الله بن عمر لمن كان يناديه بـ (يا خير الناس): (أنا لست خير الناس إنكم ما تزالون تمدحون المرء حتى تهلكوه!). وقال فيها صلاح الدين: (لا تلمع عيناي بفرح والقدس أسيرة). إن أمثال هذا الجاهل يمثل تجلياً واحداً من تجليات التزوير العالمي في عصرنا، وهو يحتمي بظل حكام يصافحون ويعانقون من يحتل الأرض وينتهك العرض، ويدنس أرض القدس. فهم بذلك يصنفون ضمن جوقة التزوير والتحلي به، يشجعون ويرعون ويرفعون قامات قميئة من أمثال هذا الجاهل المتعالم.

المبحث السادس

عن باعة الأقلام والكلام، وفيه :



أ- كلمات غير أمينة



قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ١٩].

الغوايات تطل من أطرها المزخرفة، وهذا الضجيج في الكلمة المعلنة غير الأمينة، يزيد الزخرفة سعيراً، فهي مطلية بما يُقبل عليه الكثير من الخائبين، وتباغتك تلك الكلمات الغوايات بمن يقولها، وكنت تظن فيه فهماً أو حتى عدلاً واعتدالاً في طرح الرأي والكلمة، فتراه في لحظة ما يتلجلج في القول، ويتحشرج بأحرفه كأنه يمتاح الصدى من بئر آسنة، صنعها أرباب القرار المغتصب، فزينوا للأتباع القول، كي يهتفوا باسم الوجوه المطلية بدهان فاسد مضى وقته، وخنعت للتلف ثوابته.

ولسوف أنأى بنفسي عن الانخداع بلون القناع، الذي يلبسه مثل هؤلاء، فهم ينطبق عليهم وصف (سِفلة السِّفلة)، الذين باعوا أنفسهم في سوق نخاسة، هم ليسوا من أهله، ولكنهم قبضوا ثمن السمسرة، وقد غرتهم خرافة الغواية بعرض زائل من هذه الدنيا الفانية، متناسين قوله جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ومصرين على أن لا يخافوا تحذير ربهم أو هم لم يعقدوا معه هدنة حياتية ولو بالحد الأدنى؛ إذ قال جل من قائل: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾. إن هؤلاء وأمثالهم ينتظرهم عند ربهم يوم عصيب ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾. إن تلك الشهادة التي يشهدها

أحدهم في القاهرة أو غيرها؛ إذ يقول: الإخوان يعيشون في قوقعة منكفئين، لا شعبية لهم، ولا يحاورون أحداً، ولا يخدمون أحداً، زورت كل الحقائق، ولقد كان البعض يظنون بهذا الشاهد بقية من خير تردعه عن قول كلمة الزور، وكان البعض الآخر يظن فيه أنه أبعد بمسافة ولو قليلة عن استزلام السلطان، وسكب كرامته ومروءته على أعتاب الطغيان، فبرز هذا وأمثاله في معظم البلدان شياطيناً ليست خرساء، ولكنهم شياطين بألسنة أفاعٍ. إنهم يعلمون أن الكلمة شهادة، وأن الشهادة مسؤولية؛ كيف يشهد الشهيد بدمه على الحق الجلي العلي، كذلك صاحب الكلمة والرأي تكون كلمته شهادة مسؤولة، إن هو ابتغى النجاة لآخرته التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

فأين مِنْ شاهد الزور هذا، ساكن القاهرة، المعدود من كبار مثقفيها حسبما يَدَّعون، ولا نستثني أمثاله في كل أقطار الإسلام، أقول: أين هو من سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، يُسلك بها، بسبب الكلمة يرميها، فيُلقى بها في جنهم يتجرع حريقها بمقدار سبعين خريفاً..

إن كلماته الزور، تتردد في الذاكرة، يذكيها العجب، وحراس القهر من حوله يتلفتون، وصهيل بخور الزيف يعبق في المكان! كيف أجاز لنفسه أن يزوّر صوته فيقول: الإخوان منكفئون، يعيشون منغلقين لا شعبية لهم، لا يحاورون، ولا يخدمون أحداً..؟! إنه يعلم ماذا تسمى هذه الكلمات المنبوذة، التي يطلقها رصاصاً على روحه وصدقيته، يعلم بكل تأكيد لمن يصوت الناس، لو كانت حرية الاختيار مضمونة، ويعلم حق العلم أن شعبية الإخوان لا تباريها شعبية أخرى من أي نوع، وهو وغيره من أمثاله متأكدون تماماً أن أي انتخابات تتسم بالحرية وبالنزاهة، لا بد أن تسجل نتائجها للإسلام وحملته، وقد حصل وشاهد وقرأ عن ذلك الجميع من

خلال خمس انتخابات واستفتاءات بعد ٢٥ كانون الثاني ٢٠١١ في مصر، وهو يعلم ذلك لأنه وأمثاله، قد باءوا هم والسلطة بإثم محاصرة شعار (الإسلام هو الحل)، ومنع المسجد من أهم وظائفه التي هي المشاركة في السياسة وفي الاقتصاد وفي الاجتماع بعد العبادة والعلم، فهو والسلطة في قاهرتهم إن شاء الله، قد ارتضوا لأنفسهم ما قاله الشاعر:

أنا قتلت صاحبي في خشية الكهوف.

أنا وددت أن تكون صخرةٌ ناعيتي.

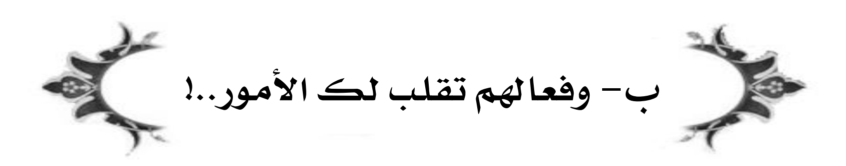
وإنْ تكُ أرضيتي مهابط السقوف

* * *

خائف مني ومن خوفي أخاف

هذا حالكم.. مع الإخوان.. خائفون من شعبيتهم، ومن وجودهم بين الناس، ومن قيامهم بكل واجب يستطيعونه تجاههم، ومع ذلك وقبله وبعده، هم يرجون رضا الله وعفوه وحسن الجزاء منه، فماذا ترجون أنتم؟ إنها لعاعات تنتظرون فتاتها من على موائد مغتصبي السلطان ليس إلا. إن ذلك السلطان ومن خلال معرفته الدقيقة بما يفكر به الناس أنزل جنده إلى الساحات يقمعونهم، ويمنعونهم حريتهم في الاختيار بوسائل كثيرة شيطانية، ثم أنزل (البلطجية) المستأجرين في الدوائر، يخيفون الذين أفلتوا من قمع العسكر، ويقيدون حريتهم بالتخويف والأذى، ثم قمع الإعلام المستقبل والحياة المدنية، ومن قبل منع الإخوان بشتى الوسائل من معاونة الناس في كل الأحوال.. وقد فعل ذلك لأنه يعلم أنه لو ترك الساحة للإسلاميين، لأصبح منبوذاً هو وحزبه، الذي أوصل البلاد إلى حالة متردية لم يسبق

لها مثيل، وأوصل الناخبين إلى المقاطعة واللامبالاة بحيث أن المشاركين لم يتجاوز عددهم ١٠- ١٥٪ من مجموع الذين يحق لهم الانتخاب، فإذا قست النسبة مع مجموع الشعب فهي لا تتجاوز ٥٪، فهل يعقل أن يبنى برلمان برأي ٥٪ من الناس، ثم ينادى بالصراخ وبأشد كلمات الزيف والتزوير (هذا هو مجلس الشعب)، إنه مجلس من يزوّر الكلام ويُجْرِمُ في الأفعال، ما لكم كيف تحكمون؟! أفرأيتم ما تزوّرون؟! لقد زوّر من هم مثلكم وأعتى، فقالوا عن الملائكة بأنهم إناث.. ألا ساء ما تصفون، وحفظ الله الأمة مما تفعلون وتشهدون، ومن أقلامهم فهي في الأسفلين.



ب- وفعالهم تقلب لك الأمور..!

إن الكلمات غير الأمينة، تنتضد فعالاً، تكون جريمة فأصحابها لا يكتفون بالصراخ والعويل، بل هم في تصعيد من الافتراء الذي أصبح ركضاً من جنون، وفتحاً لأبواب الجحيم، وطعناً في صدق الأقاويل، مسربلاً بزيف الرؤى، مفطوماً على العنجهية. وعلى امتداد القرون، لم نر منهم ولم نسمع عنهم إلا أنهم أبداً طامعون بما في أيدي الناس من أملاك وثقافات وثروات.. يريدون اغتصابها بكل وسيلة، شريرة كانت أم مشروعة.. لا يهم عندهم الكيف، بل همهم الغاية المتوحشة؛ بالفعال الغادرة، والحجج الزائفة يزجونها بلكنة هجينة يُحمِّلونها مقولات إنسانية، محشوة بألغام قاتلة، قَدِمت من عصور كان الصيد فيها بهجة، مهما كانت الوسيلة: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

كمنشار النجار الحاذق، يأكلون في الصعود وفي الهبوط.. حراماً .. حلالاً.. يأكلون! إنهم لا يفرقون، لكنهم في كل ذلك يقلبون لك الأمور، يزينونها أمام السذج، وهم يضمرون غير ما يزينون، وقد قال ربنا عز وجل في أمثالهم من قبل: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨] وقد صدق البعض زيفهم وما يزينون وما يقلبون، فوقعوا في شر ما صدقوه، وراحوا يتعاونون معهم دالين على العورات، سائرين خلف الدعاة إلى جهنم، الذين يقودون القطعان بلسان عليم، وسيف قاطع زنيم..!

تراهم في أفغانستان..ووحوشهم الطائرة دون طيار، تصطاد الآمنين بالعشرات

كل يوم، دون أن يرفّ لهم جفن، أو يتوجع لهم ضمير، بل هم يقلبون لك الأمر على أنه حرب على الإرهاب، ودفاع عن الإنسان بقتل الإنسان، لكأن قتل الإنسان المسلم مشروع، من أجل أن يعيش في رغد إنسان في نيويورك أو واشنطن أو لندن أو باريس أو برلين، وغيرها.

كيف يتم بناء هذا الكيان الفكري المقلوب، إن لم يكن ذلك البناء صادراً عن غبطة آلة مقلوبة، ولحن مرٍّ مزروعٍ مذ كان الزمان هناك، فهو في العقول وفي القلوب كامن إلا من رحم ربي، وهم قليل قليل، صوتهم خافت، وفعلهم باهت، لا يؤبه لهم، ولا ينصت أحد لنداءاتهم المكلومة.. فهم هناك امتلأت قلوبهم ونفوسهم بالداروينية وبقاء الأفضل، مدعين أنهم هم الأفضل.. وما أدراهم أنهم كذلك.. ألم يقل ربنا عز وجل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[الإسراء: ٧٠] جميعاً دون استثناء وقال جل من قائل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجُرات: ١٣] وليس أبيضكم ولا أكثركم تقنية، ولا أتقنكم لعلوم الحياة، ولا أكثركم تسلحاً وأدوات دمار، فإن التقوى ها هنا تجلب كل خير للإنسان، فهي تمنع الأبيض أن يتكبر في الأرض بغير الحق، وتأمر صاحب التقنية والعلم الحياتي أن يسخرهما لصالح بني آدم، وليس لاستلاب الآخرين، وسرقة حياتهم وممتلكاتهم وأرضهم وما يحرثون، فإذا ما قام صاحب الحق بالدفاع عن حقه بالوسائل المتاحة، رأيتهم يقلّبون له الأمور، فيصمونه بالإرهاب والتوحش، ولو لم يصبهم إلا بالأذى البسيط.. وحتى إن زيفهم يصل إلى حد القيام بالقتل والإجرام، وتدبير وتلفيق العمليات، ليتهموا بها المظلومين.. ولقد جرى مثل ذلك الاتهام كثيراً، وظل الأمر غامضاً، حتى أذن الله بانكشاف المستور، وزوال الأغطية والأقنعة ﴿حَتَّىٰٓ جَآءَ

ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨].. ألم يكن ذلك هو الذي فعلوه في العراق؟ ألم يتهموه، ويزيفوا الحجج الكاذبة لغزوه؟ وصدقها الكثيرون، ولقد صدح بها في الهيئة الدولية «كولن باول» و«توني بلير» في مجلس عمومه؛ مسوغين قيامهم بهدم دولة العراق بمثل تلك الأكاذيب، ونشرها في كل وسائل الإعلام، حتى أتوا على دولة عربية مسلمة، لم يبق منها اليوم إلا هيكل متهالك طائفي تتكالب فيه الفئات الضالة على النهب والسلب وتقاسم السلطان في أرض أضحت يباباً.. وهم ما يزالون يزيفون ويزينون الذي حدث بتقليب المواجع.. ورغم أن ديننا يحرم بشدة دماء الآمنين؛ مثل الإجرام الذي يحدث في الكنائس والمساجد والأماكن العامة، فإنه يحق لنا القول: عجيب هذا العالم..! الذي يسمح بالخوض في تقليب الأمور لأجرم المجرمين «نتن ياهو» الذي شارك في الزفة الأخيرة المتعلقة بمسرحية غير محبوكة، اشترك في إخراجها الكثيرون، وهي مسرحية (الطرود) الملغمة المسافرة بشكل ساذج ومشبوه من اليمن إلى شيكاغو، إذ يقول نتنياهو: لقد جربنا مثل هذه الأعمال تأتينا من العالم المتوحش.. كل الناس يمكن أن يتكلموا في هذا السياق، إلا مَنْ وجوده والمكان الذي جلس فيه ونطق بزيفه قائم على الاغتصاب والإرهاب، وسرقة أرض الفلسطيني، وإدعاء أنها أرضه وبلده بأمر تلمودي محرف، وهو الذي يأمر بقتل أصحاب الأرض يومياً، ويحمي من يعتدي على بعض ممتلكات الفلسطيني التي ما زالت بيده، فيقتطع منها يومياً، ويجرف مزروعاتها كل ساعة، ويسرق ثمرها كل لحظة، ثم يرسل طائراته ودباباته وسفنه وجنده، ليدمروا ويقتلوا الآلاف ويخربوا الحجر والشجر والحيوان في غزة وفي لبنان وغيرهما.. أيها الناس: ما لكم لا تَذَكّرون.. أفلا تتفكرون؟ فتتعظون، وتعودون إلى قول ربكم لتردوا على هؤلاء بقوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ

ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١]، ثم لتقفوا لهم جميعاً وقفة حق تعذرون بها إلى الله..؟ وإلا فإنها نهاية الذين ظلموا أنفسهم..! وقصرت أقلامهم عن وقفات مسؤولة..



جـ- وقلبوا لك معنى الحياة

إن الذين ظلموا أنفسهم يثيرون ضجيج الكلمات حول الخلود. فجدلية الموت والحياة، جدلية لازمت الإنسان منذ وجوده، فأسكنته دار الحيرة؛ فوجع الموت أذهله عن نظر الهدف من الحياة، والمواعيد المجهولة أغضت من تطلعه إلى المآلات، وازدهار الموت في حقوق حياته، حيث يزور الساحات كل يوم أو كل حين، يبرهن لهذا الحي أن حياته لا تفارق قدرات يديه المتدثرة بأجل، لا يتزحزح عن مواعيده قيد أنملة من زمن، كما قال القرآن الكريم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وأقول: إن ازدهار الموت هذا لم يردع الناس عن حب الحياة حباً تعلقت به كل أرواحهم وأجسامهم، حتى وَجَدْتَ منهم دعاة مضللين، وهم اليوم يقولون: الحي أفضل من الميت، والحياة الدنيا هي المتبغى، ويصمون كل من يحبذ موتاً شريفاً، مدافعاً عن حياض وطن، أو واقفاً لغاصب أو لص أوطان وثروات، أو سالب لأمن الأحياء بأنه عدمي أو صانع موت، لاحظ كيف أنهم قلبوا لك الأمور، حتى في شأن لا يملكون منه أي سر.

إن ذلك التعلق- غير الطبيعي- بالحياة الدنيا أنشأته أحلام غير مهتدية، أبحرت في أرواح أولئك المتعلقين تعلقاً لا حدود له بسواعد الدنيا وخواصرها ودمنتها الخضراء، إنهم جعلوا العيش لعباً ولهواً وتفاخراً وتكاثراً، فاتخذوا من الحياة بهذا المعنى دمية ضخمة تخبئ لهم بظنهم كنوز البقاء والخلود، وراحوا يتنازعون تلك الدمية، أيهم يحصل على خزائنها فيفخر بها على الآخرين، غير مهتمين بما يخلفه ذلك من دماء وجثث وخراب.

إنهم يحصون الأيام، ويعدّونها بشغف المشتاق إلى الاستكثار منها، من غير أن يعوا حقيقة هذه الحياة وما أعلمنا به الله عنها، إذ قال جل شأنه وتقدست كلماته: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ ﴾ [الحديد: ٢٠] إلى أن يقول: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

فهل تُعشق الحياة عشق إدمان بلا هداية بعد هذا العلم الذي بينه ربنا لنا، وفيه بيان ماهية هذه الحياة الدنيا، وأن المستقر الدائم الذي لا مناص من الوفود إليه هو الآخرة التي هي الحيوان، وهي إما سعادة أبدية، وإما جحيم أبدي؟!: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]. وهنا يجب أن نفك المرساة، ونضع المجاديف ونبدأ الرحلة، بعيداً عن غبش الوهم بالخلود في الحياة أو وهم السعادة، التي لم يجدها عبد فيها إلا ملوثة بمنغصات لا تبقي ولو على ابتسامة خالدة، فعلام هذا الضجيج الإعلامي المحموم المكثف من أجل وضع هذه الحياة في القلب وفي الروح ثم في الجوانح؛ إذ يدعوننا إليها بدعاوى المتعة حراماً كانت أم حلالاً.. لا يهم، وبدعاوى الاستزادة من همٍّ يومي، يقود إلى التسوق، الذي يروجون له وكأنه عبادة، فهم يضعون الآمال الوهمية بين يديك، ويغرونك دائماً ولكن بماذا؟ هل بتهيئة النفس ليوم آت لا بد منه؛ فكل يوم يمضي من حياتنا يقربنا منه؟ أم بعلم إنساني وعمل رباني، يقود الإنسان إلى خدمة أخيه الإنسان، ثم هو يؤول به إلى موت سعيد؛ إذ يسوقه إلى آخرة فائزة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ألم يتدبروا أمر الله لنا، قائلاً جل من قائل: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ

ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص: ٧٧]، وكأنهم لم يصلهم إنذار الله جلت عظمته القائل: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]. وكأنهم لم يقرأوا بيان رسول الله ﷺ، الذي يصف فيه مكانة هذه الدنيا التي تملأ عليهم كل منافذ حياتهم: (ما مَثَلُ الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع) رواه مسلم. وكأنهم لم يعلموا ما وصف به رسول الله ﷺ الوهن، الذي هو سبب من أهم أسباب الذل والهوان، فقد سئل عليه الصلاة والسلام: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت) رواه أبو داود بسند صحيح.

وأخيراً، يجب أن نقول: إن حب الحياة الدنيا الذي اشتد غزوه للقلوب من قبل وسائل الإعلام العصرية، وإن ثقافة هذا لحب المضلل لهو سائر بالناس نحو التلف والهلاك، ونحن إذ نقول ذلك فإننا لا نعني به إهمال هذه الحياة، وتركها للشر والأشرار، لا.. أبداً.. إنها دعوة إلى التوازن وفهم أهداف الحياة التي خلقها الله فينا، حيث أراد لنا أن نحيا من أجل الآخرة، وأن نستعمر الدنيا والأرض من أجل بث الخير والصلاح فيهما، فهي دار اختبار ومرور إلى الحياة التي هي الحياة الحقة، فلنملأها بما يضمن لنا حياة أخروية أبدية سعيدة، وليكن من ثقافتنا ما رواه الديلمي: « لا تسبوا الدنيا، فلَنِعْمَ المطية، للمؤمن، عليها يبلغ الخير، وعليها ينجو من الشر».وكذلك ليكن من ثقافتنا أننا نردد مع الشهاب ما رواه (أصحلوا دنياكم واعملوا لآخرتكم)، ومن ثقافتنا أيضاً الحديث الصحيح الذي رواه أحمد: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء).



نعم إن هذه الدنيا ليست هي النهاية، ومن قال ذلك وأصر عليه فلينظر المآل، إذ لا رؤية متزنة له تغفر زلته، فتعيده إلى الحق. انتبه أيها المعتدي على الحق وامسح عينيك بماء الآيات الربانية، ثم انظر: هل إلى مرد من سبيل، بعد أن تفنى وتذهب موجودات دنياك من بين يديك؟

أيها الواهمون الظالمون كم خدعتم أنفسكم أولاً؟ ثم كم خدعتم الناس بما سولت لكم به أنفسكم؛ سلطاناً تبغونه، وأرضاً تغتصبونها، وثروات تنهبونها؟! ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] لقد ضيعتم الطريق، وتهتم عن سواء السبيل، وعاديتم الإنسان، فحولتم الأرض إلى نار تأكل ما كان يكفيكم ويكفي الناس جميعاً.. لقد تعريتم، ووضعتم أوراقكم فوق الطاولة، حين ظننتم أنكم باستخدامكم بضع مصطلحات، تغطون بها على سخائمكم! خاب فألكم، فقد انكشف السر، وانتحر كذبكم على شواطئ الحقيقة، وها هم الشهداء الذين رميتموهم بشتى التهم يطلون من عليائهم، ليقولوا للعالم: إن هؤلاء الملأ الذين يدّعون بأنهم كبراء العالم قد وضّح الله حالهم في الدنيا والآخرة فاحذروهم، ولقد جاء التوضيح المبين في القرآن الكريم؛ إذ قال الله سبحانه: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وإذن فهي دنيا لها آخرة، وآخرة فيها حساب، وهي وقفة نهارها طويل طويل،

لا يقاس أبداً بنهار حياتكم الدنيا. إن الاستكبار في الأرض على عباد الله، لا يذهب هكذا بلا سؤال ومساءلة عسيرة.. تكلموا أيها المستكبرون المفسدون، لماذا لا يدافع عنكم استكباركم؟ أين ذهبت مصطلحاتكم التي حاولتم بها غرز أنيابكم في أجساد المستضعفين؟ في أي مقابر جماعية دفنتم الملايين وقرأتم عليهم مواعظ مصطلحاتكم الموسومة بحروف غبية زائفة؟ تتفاخر بالقول: الإرهاب، اللاسامية، الهولوكست، حقوق المرأة..!! رباعية من موت زؤام، حاولتم بها إخفاء كل جرائم الأرض، التي خضتموها بوحشية، وقد قال فيها زعيمكم: لو لم نلاحق الإرهاب لقتل الكثيرون..!! ولكن قل لنا يا مدّعي التغيير: ألم تقتل الملاحقة الخادعة المخاتلة الكاذبة، الملايين من المستضعفين في العراق وفلسطين وأفغانستان والسودان والصومال..؟! أم أن هؤلاء الشهداء لا حساب لهم أمام دم واحد منكم..!!

ثم قل لنا: كيف يكون قتل الأنفس العزل على ظهر سفينة في أعالي البحار دفاعاً عن النفس؟! وكيف تكون محاولة أناس مدافعة الذين يحتلون أرضهم إرهاباً..؟! لقد صدق رسول الله ﷺ إذ قال: (لا حسد إلا في اثنتين... ورجل آتاه الله حكمة يقضي بها ويعلمها) صحيح البخاري. ولأنتم بخروجكم عن حدود المنطق والعقل فيما تقولون وتتصرفون، أشد بؤساً وتعاسة، بل إنكم بذلك دخلتم تحت قول الله جل وعلا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] والحقيقة أن متاجرتكم بمصطلح الإرهاب، ترتد عليكم اليوم تخبطاً وخسراناً بالأنفس والأموال والثمرات، إذ بدت صحراء أغطيتكم تهجم على الأرض الخصبة التي تتوفر لكم، وها أنتم في واشنطن وفي تل أبيب، تذهب عقولكم وتطيش قراراتكم، وتفقد حركاتكم وحراككم كل حكمة، وولغ بعضكم في عرض بعض، تتلاومون وتتهارشون وتتزود أكبادكم من

حسرات، تأكل قلوبكم حزناً على الأموال والفلذات، وكأن حالكم يقول: نحن المتعطشون للقتل.. حتى لسوف نقتل أنفسنا!! وأما اللاسامية والهولوكست، فالقول بهما مزحة ثقيلة مقيتة، ليس من أجل أنهما غير حاصلين، لا.. بل لأنهم ولغوا في تهويل حجمه وتوظيفه، حتى كاد يكون لبداً على من أطلقه ووظفه، وأما اللاسامية، فإن التاريخ والأعراق والواقع جميعها تقول: إن العبرانيين هم الذين كانوا قديماً من الساميين، وأما أتباع الديانة اليهودية الحاليون، فهم لا يمتون للسامية بصلة، لا من قريب ولا من بعيد. وأن «اللاسامية» ليست إلا أداة مسلطة على كل من ينبذ سفه وغطرسة ووحشية دولة مغتصبة لأرض الفلسطينيين، الذي هم سكانها وأصحابها منذ آلاف السنين. وإن هذا التوظيف لهذه الأداة، بدأ يتهافت فكرياً وعملياً وميدانياً حتى عند من أطلقوا الكذبة وصدقوها، وانظر إذا شئت إلى ما يلي:

- ٥٩٪ من الأوروبيين قالوا: إن الكيان الصهيوني أكبر مهدد للسلم العاملي.

- وأصبح كبار مسؤولي الكيان الصهيوني مهددين بالملاحقة في العالم.

- وانظر إلى نبذ العالم شعبياً للرواية الصهيونية وعن وضعها في فلسطين، خصوصاً بعد حادثة قافلة الحرية واغتيال الشهيد المبحوح. ولا بد هنا من التأكيد على الموقف التركي المهم.

واستمع إلى المحامي الدكتور «ستانلي كوهين» اليهودي الأمريكي مع اتحاد المحامين الدولي، الذي شُكّل لملاحقة مجرمي الحرب الصهاينة. الذي أدان سلوك الصهاينة تجاه قافلة الحرية التركية وأدان إجرام هؤلاء تجاه الفلسطينيين.

ولا نتجاوز هنا الانشقاق الفكري والعملي داخل الصهاينة في فلسطين، وكذلك التغير في الرأي العام الأمريكي تجاه الرواية الصهيونية، ومثاله تغير «جيمي

كارتر» الرئيس الأمريكي الأسبق.

وهناك علامة مهمة في هذا السياق تتمثل في امتناع بعض الموانئ الإسكندنافية عن تحميل وتنزيل حمولة سفن الصهاينة، وكذلك مواقف العديد من الجامعات الأوروبية والأمريكية من الجامعات الصهيونية، فضلاً عن مقاطعة أوروبية جزئية لمنتجات المستوطنات الصهيونية.

وأما فيما يتعلق بالمرأة، فإننا نقول: إن أفظع جريمة أهداها الغرب للعالم هي ذلك الانفلات من كل خلق أو قيمة أو تحضر، تلك الجريمة التي حولت المرأة إلى كيان جنسي لا غير، تحت مسمى الحرية.

إنهم ممهلون رويداً، وهم مستدرجون، ولسوف تكون العاقبة خسراناً مبيناً، ولسوف تسقط ورقتهم يوماً، وعسى أن يكون ذلك قريباً. إن لم يرتدعوا ويعودوا إلى الحق والحقيقة في كل الشؤون. ويعودوا عن قلب وتقليب الأمور لِيُسَوِّدوا رواياتهم عن الواقع المقيت.



أوراقهم ساقطة أمام عز الكلام الرسالي الذي قال فيه الشاعر المجيد د. عودة أبو عودة، وكأنه يرد على من عرفوا الحق، ولكنهم كتموا أنفاس الهداية فيهم، وذلك كي يستمر وهم الدنيا عمله في حياتهم، وكي لا يحيا في قلوبهم أمل الصلاح:

المُصطَفون بحب الله نبعُ هدى ... ما إن تحقق فينا القولُ والعملُ

يا سيدي يا رسولَ الله قدوتُنا ... وعزنا بك مضروبٌ به المثلُ

قَومي كرامٌ وإنْ ندَّت بهم هنةٌ ... لكنَّ مَعْدِنَهم بالخير مشتمل

سيدي يا رسول الله، قد رسخ منهجك في نَبض الحياة من روحي ومن جسدي، وهزّت قلبي رياحين حبك، إذ أعشبت فيها خضر الأماني، وحنت مني الجوارح إلى لحظٍ منك، يضفي عليه رب البرية من فضله فيضاً من غفران ومن نعم.

اتل يا أيها النبي الحبيب الكريم آيات ربك في عصر أدمن فيه الجهل غباءه، ورتّل فيه المدّعون حروف التعالي، حد انقلاب المعاني واختلاف القوافي، أُدن منا أيها الحبيب وأسكب فينا نهارات معارفك، فقد ادّعوا أنهم لا يعرفوننا ولا يعرفونك، بل قالوا وقولهم قول المرجفين: إنهم يجهلون قدْرك، في حين أن شراعك الخيّر لا يجهل سفر بحره إلا من عميت بصيرته وأظلم بصره.

ومرة تلو المرة أرجوك بعد الله أن تمرَّ فينا بجلال قدرك، وعظيم ما أضفاه عليك ربك من خلق ومن عطاء ومن مجد؛ فأنت (رحمة مهداة)، وأنت نداء الله للعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]... ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لقد أطلقت في الأرض بتوفيق من الله سبحانه وتكليف منه نوراً لا يزال يضيء القلوب مادامت السماوات والأرض: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥].

وها هي بعض تجليات سفرك الذي أوحي إليك، تَشَرَّف الكثيرون بحمل كلماته الفذة إلى الناس في هذا العصر، المسكون بكثير من جاهلية القول والفعل، فهي تكليف يرفع درجات المُكلفين إن هم وقفوا حياتهم ومماتهم من أجلها: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢]... وهي (التجليات) التي حملها بقوة الإخوان المسلمون منذ قرن تقريباً، فلا كلّوا ولا ملّوا، دائبين يسعون وراء فضل من الله ونعمة ورحمة، فهم جزء من العَرف الذي عممته التجليات والكلمات الرسالية، والتزم به من لا يزال قلبه ينبض ببعض الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبذلك تعود القلوب مزهرة مباهية بالأنوار التي جاء الله بها إلى عباده، بعيداً عن جحود الجاحدين، الذين يقولون: إنهم لا يعرفونك يا رسول الله ولا يعرفوننا. فيرد عليهم كتاب الله قائلاً وقوله الحق والفصل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ونحن المؤمنون بالكلمات التامات، نحمل اليوم عرفك مُجمراتٍ ننثر شذاها في العالمين، قائلة: إنهم يعرفونك ويعرفوننا ونعرفهم، رغم إدعاء البعض منّا أنهم لا يعرفوننا، ورغم افتراء الآخر علينا بأننا أشرار وأن كلماتنا وأفعالنا إنما هي (الإرهاب)!!

إنهم يعرفون حق المعرفة أن الحق والضوء والفجر كلها تضيء بين ظهرانينا، وأن ما قاله الشاعر المُجيد:

قَومي كرامٌ وإنْ ندَّت بهم هنةٌ ... لكنَّ مَعْدنَهم بالخير مشتملُ

هو الذي يفسر المقال، ويقود إلى المآل، فقومي تنظف كيانهم الكلمات الواردات على ألسن الصحوات؛ كيف ورقة (اللوتس) تنظفها حبات المطر دورياً، كلما تدحرجت فقاعاتها فوق جسد الورقة، حيث تجرف معها في طريق حراكها باتجاه الأرض كل أوضار الجسد الورقي، دون أن تختزن الورقات القطرات مُشَكلةً مدخرات بليدةً تسبب العفن والسكون.

وأعود لأقول: إنهم يعرفوننا ونعرفهم، يعرفون أننا الذين بقينا نمد لهم يد الإنقاذ من وهاد جاهلية القول والفعل مدى الزمان، إلا أنهم ظلوا يردون علينا بما رد به قوم نوح على نوحٍ عليه السلام؛ إذ شكا لربه فعلهم الجاهل الذي استغرق منه عملاً دؤوباً استمر تسعمئة وخمسين عاماً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٦].

فهؤلاء ينظرون إلينا كما قال الشاعر: يدوحون باسم له أحرف من غبار/ فلا صدق بين الشفاه ورمض العيون/ يمد الجنون بساط الموائد/ ... وأنت اغتنام/ .

وها هم يعرفوننا، يجوسون في ديارنا بخليهم ورجلهم، يدمرون كل ما وجدوه في طريقهم، لقد استسلم لهم ولثقافتهم ومعرفتهم وصيغة حياتهم اليومية معظم من في الأرض، وبقي عليهم نحن الذين مددنا لهم يد الإنقاذ على مدى الزمان، تلك اليد التي حملت منهج (الرحمة المهداة)، ولما لم نستلم رغم كل الدمار الذي أحدثوه، توجهوا إلى المنهج والرحمة، متلاحمين ظامئين لدمنا، حاقدين على تقدمتنا، مصرين على كسر صمودنا المتمثل بحمل الرحمة التي أهداها لنا رسولنا ﷺ، مزينين زحفهم المتوحش الجاهل بزينة الكذب والشعوذة السياسية والثقافية والاجتماعية، وفينا سمّاعون لهم، إلا أنهم وقفوا عند تضاريسنا الوعرة؛ فهم اليوم يتمنون لو أنهم لم يُقدموا، أو أنهم ظلوا يناورون عن بُعد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[فاطر: ١٠]. ودمت يا رسول الله للأمم ضمامةَ نرجس مهداةً لخصب الإنسان وعز الإيمان، فهم رغم نكرانهم يعرفون قدرك، ويفهمون مقدار تأثيرك، ويقدرون فعل منهجك في الناس؛ ولذلك فهم يحاربونك وأتباعك ومحبيك، محاولين عضل مسيرة نصر الله لك، ولكنهم يجهلون أن هذا الدين هو الغالب في المآل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

المبحث السابع

العلم والقلم الصادق



أ- الصحبة وأمانة القلم

لا بد أن تأتي لحظة تاريخية تعيد إلينا سيرة الأنبياء والأسياد، نتترس بها من أمراض فردية واجتماعية وسياسية، داهمتنا في لحظات الغروب الداكن، فأكلت من قلوبنا، واقتاتت من أكبادنا، ورتعت في حياتنا، وملأت ساحاتنا بالخوف المفرط على أوضاعنا، على مكاننا، إذ أغلقت الأنا المغرقة في الأعماق الرؤية المبصرة عند البعض، تلك الأنا التي أهلكت الأمجاد، وسلمت البلاد، وعاثت فساداً وإفساداً في الهيئات والجماعات فنزل بنا عذاب الأمم، وميراث جنون المسافات، وتعزز فينا اللقاء بين الدمار واللامبالاة.

وإن من سيرة أولئك الأسياد وفي مقدمتهم الحبيب المصطفى ﷺ وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين وسلم تسليماً كثيراً، حِفظهم حق الصحبة واعتبارها مسؤولية وأمانة وعهداً وسياسة.. فقد اعتبرها القرآن الكريم كذلك، إذ قال جل وعلا ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤] .. وقال أيضاً جل من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقد أوضح ذلك المبعوث رحمة للعالمين (ﷺ) بقوله: **«من سمع من رجل حديثاً لا يشتهي أن يذكر عنه فهو أمانة وإن لم يستكتمه»**.. رواه أحمد.

وقال ﷺ: **«قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة وسليقته مستقيمة»**.. رواه إبن حبان في الصحيح.

وإن من ألصق صفات المرء «**صفة حفظ اللسان**»، فهي تمنع المرء- وقد حفظ أشياء وعرف هنات وقصوراً من أفراد وجماعات صاحبهم دهراً ثم هجرهم بسبب اختلافات في الاجتهاد والرأي- من الخوض في سيرة الأصحاب أو استغلال معرفته بخصوصيات في جماعات. من أجل تسويغ قطيعته أو كسب مالي أو شهرة من وراء كتابات أو كتب يناولها لوسائل الإعلام، مخالفاً بذلك أخلاق المجالس في الإسلام المتزينة بالأمانة وكتمان السر.. إذ إن الصحبة المديدة- في كثير من الأحيان- مدعاة لرفع التكليف، كما هي مدعاة للأمان.. وكل ذلك قد يخرج من المصاحب بعض الهنات أو يظهر بعض الاجتهادات الخاطئة، فيطلع عليها صاحبه. هذا إن كان فرداً، أو يطلع عليها بحكم وجوده في جماعة أو حزب أو هيئة عامة أهلية هو مؤتمن على سرّها.. وإذا حدثت قطيعة لأمر ما بين هذا الفرد والفرد الآخر أو بينه وبين الجماعة أو الحزب أو الهيئة راح يخوض في أعراض الناس وهناتهم، وقد لا تكون هنات ولكنها باجتهاده ورأيه أخطاء، وهو بذلك يخالف أخلاق رسول الله (ﷺ) إذا قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» متفق عليه.. وقال أيضا: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**» متفق عليه.. وهي شروح لقوله تعالى جل من قائل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقد يقول قائل.. وإذن كيف تصلح الأمور، أو كيف ندل على الأخطاء لنتفاداها ونصحح المسار..؟.. أتقول بقمع الرأي وإسكات النصح..؟.

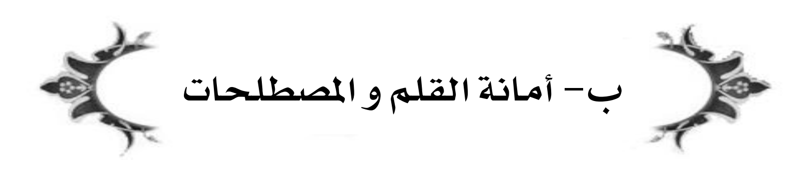
نعم... إن بعضاً من أصحاب هذه الأسئلة هم الذين أقصد من أسطري هذه التي بين أيديكم ... لأن هذا البعض يتساءل، ويبتغي من وراء السؤال الإحراج لا الفهم والمعرفة... وقد حصل بسبب سيره مع جماعات أو هيئات إسلامية في ماضي حياته مكانة فوق صفحات صحيفة أو ركنا في إذاعة أو مساحة في شاشة فضائية،

لكنهم لم يعملوا بحكمة الشاعر إذ قال:

شدي فوق أسراري عيونك واشربيني.

إن ثـــوب العصــــر لا يقـــوى   على كتم الهواء.. وصد غزو البرد

لا بل إن هؤلاء البعض غضوا النظر عن الصلة أو المواصلة، وعدم قطع الجذور، وراحوا يحتكمون إلى الأنانية والرشاوي المتمثلة في المكانة والتقدمات، مواصلين مشوار تزييف الوعي، يحاكمون صحبتهم وعهدهم بأدوات وتحليلات وآليات لا تليق بها ولا تنطبق عليها، بل يحاولون مقاربة ذلك بما يجدونه مزجى في السوق من جماعات أهلية ورسمية لا تحكمها إلا المصالح والأهداف الشخصية الأنانية، ولا تنظم مسيرتها مبادئ من أخلاق ودين... متغاضين في كل ذلك عن سبيل النصح والإصلاح الذي يبينه لهم دينهم الذي ارتضوا الانتماء إليه، ذلك السبيل الذي يقول بالنصح لا بالتجريح وتقديم الخطأ والخطايا على صفحات الصحف وشاشات التلفاز، غير مميزين بين من يعملون على هداية الناس باجتهادهم الإنساني البشري المدعم بفقه المجتهدين، وليس لهم نصير من حكم أو موقع رسمي، وبين من هم في سدة الحكم يسوسون أمور الناس ويملكون التغيير وعدده ومعداته، لكنهم يميلون ويزوغون عن الحق.. وهم في ذلك يريدون من حركة إسلامية كـ «الإخوان المسلمين» التي انتموا إليها فترة ثم أتعبهم المسير الجاد فتركوا... أن تضع للناس برامج تنمية وخططاً اقتصادية تنهي البطالة والفقر، وهي حركة إما ملاحقة أو مضيق عليها، أو ممنوعة حتى من الوجود العلني الرسمي **«ما لكم كيف تحكمون».. يا هؤلاء لقد بعد بكم السعي عن الحق... فلا تساوموا الباطل على عهد وأمانة، أنتم مطلوبون لهما في محكمة العدل الربانية**. فأين يا ترى هؤلاء المساومون من أمانة القلم؟



ب- أمانة القلم و المصطلحات

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ .....﴾ [النحل: ١١٦].

ومن ضمن ما يشي به أصحاب الأقلام الذين غادروا أمانة الصحبة قول بعضهم: إنه ليس عند المسلمين اليوم رؤية للعالم.. وهذا قول هراء.. لماذا..؟ لأن الرؤية موجودة.. كيف؟ إن أساسات الرؤية موجودة في النصوص التي بين أيدينا ومتى وجدت الأساسات.. فإن المسلم والمسلمون يستطيعون إقامة بناء كامل لرؤية صادقة سديدة للعالم وواقعه ومناهجه ومسيرة أهدافه باختلاف تكويناته، غير أن شرذمة الأفكار وحرب الأفكار المسلطين على أمتنا.. ليس من عهد بوش وحسب .. بل هي حرب أفكار مستمرة منذ قرون، استهدفت شَرذمة الثقافة والمثقفين في أمتنا، وذلك اتباعاً لقمامات العالم الآخر من فكر وثقافة أنتجت مدنية مادية، عملت على ارتكاس الإنسان في قيمه وأخلاقه وتوازنه من خلال تهييج غرائزه وشهواته وطموحاته وأطماعه. وأدّت إلى وجود أناس في أمتنا تابعين مقلدين يدّعون أنهم مفكرون ومثقفون، لكنهم أصبحوا ينطلقون من احتقار الذات والانبهار بكل ما جاء من أفكار غريبة عنا، وقد تناسى هؤلاء أن صاحب تلك الأفكار ظل يتخبط في ظلمة حالكة، وفردية طاغية واحتقار للإنسانية وحق الإنسان بزَّ ما عند غيره من ظلمات، وقد ظل ذلك حاكماً في دياره إلى القرن الأخير من عصرنا.

وفي القرن الأخير دخلت على أمتنا حربٌ جديدةٌ مُقَنَّعةٌ زاخرةٌ بالمفاهيم

والمصطلحات، التي تخفي في خلفياتها بلاءً عظيماً، يحاول نشر الانحلال والانفلات من القيم الأصيلة للأمة التي تواضع الناس- حتى من غير المسلمين- على علوّها وسيادتها وحسن سيرتها في الناس وقيادتهم في حياتهم قيادة راشدة. ويقوم ناثرو تلك المصطلحات بالاجتهاد في نشر الفساد، من حيث يُلَبِّسون على الناس الفهم؛ إذ يطلقون المصطلحات البراقة من مثل (حقوق الإنسان، والتقدم، والتنوير، وتجديد الخطاب الديني، وإصلاح التعليم، والتحديث، والمجتمع المدني، والعقلانية والاعتدال.. إلخ) في الوقت الذي يُلغّمون فيه تلك المصطلحات بشتى المفتريات على الحق، ويحملونها كِبْر الكلام الخادع الغادر بالإنسان وقيمه وصلاحه، كما يحشونها بالسخرية والهمز واللمز بحق ثبات تلك القيم الصالحة للمجتمع الرشيد، ومن ثم احتقار كل ما يُقوِّم معوج الممارسات والسلوك، والمناهج والبرامج السديدة، ويخصون الإسلامية منها بحقد وشنآن غير موصوفين لشدتهما وكثافة العمل بهما وذلك مصداقاً لقول الله تعالى فيهم وبأمثالهم: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ ومصداقاً لحديث رسول الله ﷺ في هؤلاء: «**أفْرى الفرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا**» رواه البخاري، وإنه لوصف دقيق لهم، فهم يرون السوء الذي أودت إليه تلك المصطلحات الملغومة في المجتمعات الإنسانية عموماً، ثم يصرون على نشرها.. وهذا هو الغدر بعينه: «**ولكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**» حديث متفق عليه.

ولا بد لنا في هذه العجالة من بيان الألغام التي تحملها تلك المصطلحات الوافدة علينا، وكذلك بيان المفتريات والإدعاءات المغايرة للحقائق المرسومة على الأرض والوقائع الماثلة في الميدان، وإليكم بعضاً من مشاهدها:

١) **حقوق الإنسان:** مصطلح جميل، حقيق بالإنسانية أن تتمسك بنقائه، كما بينه القرآن بكلماته القدسية: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾ [الإسراء: ٧٠] ورعاه رسولنا الكريم ﷺ بقوله: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا**» رواه مسلم. وكما تابع فيه الصحابة إذ قال أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه- لابن الأكرمين: «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**».. وهي صرخة إسلامية مضت في العالمين، كخير كلام وفعل مثّلاً حق الإنسان والإنسانية.. غير أن حقوق الإنسان هذه امتطيت بمصطلحها الحديث بأهداف خبيثة ونوازع شر، أريد لها أن تخرب المجتمعات الإنسانية، فقد عبثت بأهداف الهيمنة والغطرسة، وإفساد ذوق الإنسان ونقائه بإدعاء أن الشذوذ بكل أنواعه حق من حقوق الإنسان (هذا الشذوذ الذي ختمته فرنسا بتقنين الزواج المثلي منتصف شهر أيار ٢٠١٣، وأن الحرية الفوضى حق آخر، وأن التعبير مهما كان شاذاً ومفسداً وفاسداً حق يجب أن يحترم وتقدم له الحجج والمنصات الفخمة، وهكذا ذهب هذا المصطلح في غياهب متنفذي العصر، عاكساً روح الشذوذ والفوضى وسرقة الأمم وحرية جنسية مُحرمة، ومبادئ اقتصاد السوق الحرة المدمرة.

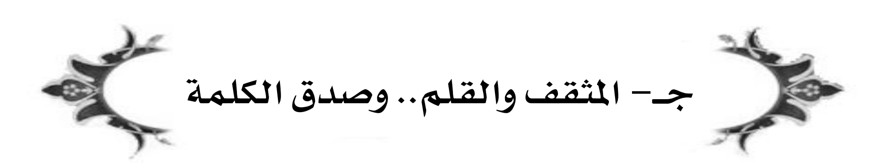
٢) **العقلانية والاعتدال:** مصطلح عظيم لو أن الإنسان حافظ على موازينه الصادقة، التي يحدوها العدل والتوازن اللذين جعلهما ربنا جل وعلا إطارين للمصطلح حين قال جل من قائل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾[الرحمن: ٩] وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨] وهكذا فإنه بهذه النصوص والأفعال المنفذة لها في العهود الإسلامية كانت العقلانية والاعتدال تعنيان معنيهما الحقيقين، أما مصطلح اليوم فقد انزلق بفعل مدعيه إلى الظلم، فكانت تطبيقاته تعني فيما تعنيه أن يعتبر صاحب الحق إرهابياً إن هو لم ينس حقه المنهوب المسلوب، كما أصبح الاستسلام للظلم عقلانية واعتدالاً بعرف المصطلح الجديد. وإذن فالمصطلح بتطبيقاته الحديثة أصبح خادعاً فارغاً من عدله وجماله وزينته.

٣) **تجديد الخطاب الديني:** التجديد والتطور سنة من سنن الله، وقد خلق الله آيات في هذا الكون كالشمس والقمر، ولم يجعلهما دائمتي الشروق على الأرض.. فهما في غياب وحضور يومي، ليجعلا الحياة متجددة أبداً، فلا يملُّ الإنسان من رتابة وجودهما لو كانتا دائمتي السطوع أو الغياب. وهكذا فالتجديد عنصر حاضر في حياة الإنسان، مفيد ونافع، ما دام هذا التجديد يبتغي الخير والخلاص للإنسانية، فليس كل تجديد آمناً، بل قد يكون التجديد رجوعاً إلى الوراء، أو انزلاقاً إلى الوباء والويلات، وقد وجب تجديد الخطاب الديني بما لا يقفز عن ثوابت الناس وحقوقهم وأخلاقهم، بل إن التجديد هو الذي يأتي لإزالة الران عن الخطاب، وللإجابة المتوازنة المتبعة للهدى عن الأسئلة المستجدة، لا لشطب فكر إسلامي أصيل، أو لقبول غبن أرضي ظالم أو لليّ النصوص كي تناسب رغائب وشهوات ومزاعم المتنفذين، أو تابعيهم بسوء وعمى بصيرة وبصر.

وهكذا نهانا ربنا عن إتباع هؤلاء:﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ

فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٨ - ٩] وفي القرآن الكريم عناصر ومحاور لخطاب إسلامي متجدد وصالح أبداً، وليس محتاجاً إلى نصح الغادرين المخادعين. وفيما يلي استعراض لآيات قرآنية تحمل عناصر رئيسة لهذا الخطاب الصالح لكل زمان؛ فقد قال ربنا جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران: ٥٧] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[المائدة: ٦٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦]﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١]﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩] وأنت إذ تأملت هذه العناصر لوجدتها تشكل مبادئ خطاب عصري صالح لكل زمان ومكان بعيداً عن الألغام، التي وضعها المفسدون أو المغرورون في ثنايا مصطلح يريدون منه إبعاد الأمة عن ميزاتها وهويتها، ممتطين أقلاماً مُزَوِّرة، مبتعدة عن حدود المسؤولية المهتدية التي أوكلت لصاحب كل قلم.



جـ- المثقف والقلم.. وصدق الكلمة

ويمكننا أن نضيف على ما قد سلف وأبديناه من قبل كلمات في قضية صدق الكلمة والمصطلح والقلم فنقول:

ترنو إلى الأفق البعيد بعيني فارس، يبحث عمن يحمل هم النهوض والإنقاذ، فلا تجد إلا انقلاباً خاسئاً حسيراً للبصر والإبصار، وتقول لنفسك معزياً: كم شقي أقوام بعلم ومعرفة لم يكونا إلا سراب نهارات قائظة، حملها أصحاب أقلام لم تسعفهم الهمم على حمل الصدق والعزم، ولم يكتل الواحد منهم من نعمى المؤهلات التي تشكل زهرة الإبداع في صفة المثقف.

وتعرج على الديار وأطلال الثقافة لتقول:

- المثقف رائد، والرائد لا يكذب أهله، مهما أدلهمت الخطوب، وعظمت التضحيات، لأنه يعلم علم اليقين أن الكذب في مثل حاله خيانة؛ خيانة للمبادئ، وخيانة للنفس، وخيانة للأمانة التي يحملها، وخيانة للشعوب والأوطان، وهي في النهاية خيانة تراكمية.
- والمثقف مسؤول.. والمسؤولية حساب.. حساب ربح وخسارة، لكن الحساب في حالة المثقف ليس حساب مادة، إنما هو حساب مواقف ورجولة ومروءة وشهامة وقيادة ومبادئ، تعمل جميعاً في آن واحد، لتكون الحياة الفردية والعامة ذات معانٍ وغايات سامقات، لا تدخل فيها همهمات الأنانيات الفردية، ولا حسابات التسلق والوصول، ولادندنات حظوظ النفس واطئة

الأهداف والطموح، ولا تراجعات الجبن والتخاذل، أو وسوسات الطمع ومخاذل الشياطين والأزّ الموجع منها للنفوس الواطئة.

- والمثقف مجاهد في معركة الأوطان والأمم؛ فهو بهذا المعنى أستاذ معرفة، تحيط بكل مقومات مهمته، وتدرك إدراكاً شاسع الأبعاد والمرامي والوسائل والمحيط والظروف.

وهو في المعنى ذاته، مناضل لا يلين، ولا يستكين، نائياً بنفسه عن ثقافة العبور المذلة، وعن ثقافة السوق المزرية بالهمة، فضلاً عن ثقافة التبرير المضلّة، وثقافة الاستعلاء الانعزالية.

وهو ضمن هذه المعاني: الصادقة الصدوقة، المضحي بوقته وماله وجاهه، بل وبنفسه، من أجل غايته المتمثلة في رفعة أمته، وتقدم وطنه، والحفاظ على مبادئه وإيمانه.

- والمثقف حامل همّ، فهو لا ينطلق من فراغ، ولا يتحرك بلا هدف ولا غاية، بحيث تجتاله الشياطين، لتضعه أنى حطت أهواء نفسه، أو رمت به أبصار طموحاته الدنيوية القريبة من الطين، بل هو الطين ذاته.

إنه في الحقيقة متأبطُ همّ عظيم، وعبء ثقيل، وحياة تستحق أن يعيشها، ويُنْسَأ له له في عمره، إذ إنه ساعٍ لإنقاذ ما يستطيع إنقاذه من حالة التردي، التي تناوش قلب أمته، وذلك لكي يتم الصعود بها إلى مراقي الفلاح والصلاح، متجاوباً تجاوباً عظيماً مع كل الزملاء من المصلحين المجاهدين، مثابراً على العمل من خلال الصدق والعزم والعلم النافع، والإيمان المرجوّ لحسن الخاتمة. وقديماً قال ابن المقفع في أدبه الصغير قولاً يراود هذا المعنى مراودة اقتراب وحث، نرى أنه من المستحسن جلبه الآن في هذا السياق:

«أغنى الناس أكثرهم إحساناً.. قال رجل لحكيم: ما خير ما يؤتي المرء؟ قال غريزة عقل. قال فإن لم يكن؟ قال: فتعلم علم، قال فإن حُرِمَه؟ قال: سكوت طويل. قال: فإن حُرِمَه؟ قال: ميتة عاجلة..».

- **وبعد**..

فهذه بعض صفات وحيازات أدبية ونفسية، تجعل من المثقف رجل الكلمة الصادقة المؤثرة المنقذة المصلحة، لا مثقف لقب وحسب، يسعى إليه ذو الهمة الوضيعة، ممن يغريهم أن تفتح لهم بوابات وسائل الإعلام، ليقولوا ما يطلب منهم، أو ما يعلمون أنه مطلوب منهم، أو ما يمهد الطريق إلى المقامات، التي تصنع الشهرة المفرغة من الجوهر والحق. ولسان حالهم يقول: ليكن بعد ذلك ما يكون؛ من تجاوز للحقيقة والحق والعدل، ولترتكب الجرائم بحق صدق الكلمة، وبحق سلاسة القبول وعذب الاستجابة، وليجهز على الإنقاذ والنهوض، ولتلون الكلمة والثقافة حينئذٍ بلون الارتزاق.. وبصيغة الانقضاض على الرجولة، وعلى لسان العدل، والسلوك الرسالي، الذي تسكن فيه مصلحة الأمة، ومنفعة الناس، وبناء الأوطان، وتقدم الإنسان، وحسن المبادرات، وطيب أيام التعايش الفذ بين البشر أيا كان دينهم أو رأيهم أو عرفهم أو جنسيتهم.. كما علمنا ربنا إذ قال ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] .. ابن آدم على الإطلاق.. مكرم.. محترمة حياته محترم رأيه، مختار لوجهته.. غير معتد على حق غيره. وفي ذلك كله والدعوة إليه كما أراده ربنا صدق القلم.



د- الموت على ضفاف الواقع



وهنا كلمات نقولها لنبين زيف القلم عندما يدعو إلى التزام واقع أليم وتكريسه:

كيف يشتعل الأمل إن لم تُرَق على جوانبه شطآن الولادة من جديد.؟ هيا أبدأوا من فوق، وأعطوا العيون الوامضة كل الفرص، وارفضوا النوم في صحراء الواقع، والفظوا حَرَّ الفوضى التي يشعلها الغرق في الطين، وليَنْمُ القفز فوق الضرورات، لتخرج من أجساد وأفكار منهكة بخدر أحدثته وقائع اللحظة المارقة، وكبلته بأصفادها قولةٌ ميتة: إن أرجاءنا ممهورة بالسكون، وإن عقولنا منقوعة بماء التخلف، ولا خروج إلا باستعارة مكنية نجلبها مِنْ عند مِنْ لا يريد لنا الخروج أبداً.

ويزدان الواقع بعناقيد الاختلال، وغشاوات سميكة، جعلت كلماتنا تهيم على وجهها، بلا رؤية، بلا هدف، بلا دليل. دعوات حثيثة الصراخ تنادي بالنوم في وحل هذا الواقع، وباتخاذه منطلقاً ومؤسساً للحاضر والمستقبل فهو الذي يستحيل تغييره، وهو الذي يفرض برامجه وجداول أعماله، وهو المسوغ لكل قبول بالدونية، ولكل رضوخ للأوامر السَنِيّة، بل ولتسويق هذا الرضوخ على أنه وسطيةٌ واعتدال وعقلانيةٌ مَرَة، وحداثةٌ وتقدمٌ ونهضةٌ مرة أخرى.

أرجوكم لا تطليوا غربتنا بالقعود في أحضان هذا الواقع.. قتلنا الضجر، وتفككت مفاصل وجوهنا من كثرة التثاؤب على شواطئ هذا الهذيان الذي يسمونه الواقع، يريدوننا ألا نحزن، وأن ندير وجوهنا لهذا الذي يحدث في ربوعنا؛

من فلسطين إلى أفغانستان وكشمير مروراً بالعراق وسورية ومصر، ثم نموت من الضحك، لأننا لا نبالي بكل هذا، ولا يوقف (تقدمنا) أي شيء من هذا..

فها نحن نركب سياراتنا ونذهب إلى الشواطئ، نعرض الأجساد بفرح طفولي، وها نحن على خطا المتقدمين، نركل النار التي تحيط بنا من كل جانب، ونزجي الأوقات في النوم إلى ساعات متأخرة من نهارات الملل التي تسكننا، ثم إذا فاجأنا الصحو المبكر عند الآخرين، ونخز ضمائرنا شيء من التأثر بما نشاهده في التلفاز، أوقفنا حبل التفكير، واهتزت منا الرؤوس، وامْتَطَتْ شفاهنا ظهر اللامبالاة، وسقنا بقية يومنا إلى خليط من هذيان السلوك؛ فساعة لتقليب مفتاح «الرائي» ولكن ليس لرؤية فعل المقاومة في الفلوجة، في الرمادي، في غزة، في نابلس، في جنين، في سورية، في مصر، بل لمشاهدة عروض الأزياء، أو عروض كرة القدم، أو للتمتع ساعة بوصلة ضجيج وصراخ من عمرو دياب أو نانسي أو حتى مشهد مقزز من ستار (....)، وكلها وجبات تقول لك: واقع.. واقع، فنم في العسل، فأنت على سكة النهوض، وفوق حدّ الحداثة، وبين أسنان مفرمة الانقراض..!... وساعة لسماع عروض (السلام العادل والشامل)، أو لمشاهدة فيلم مثير، (لا تفهمه) عن عروض مصرية أمنية (وعصرية).. مرة يهدونها لأهل فلسطين، على شكل برشامات تهدئة، تفيد في تسكين الرؤية، كي لا ينفضح (طابق) الأهداف، ومرة يهدونها لحكومة الأمريكان في العراق ملغومة بهمِّ العصر «محاربة الإرهاب».!!..وهي (مقلوبة) محاربة الشعوب...! محاربة السلام..!.

عجيبة ثقافة الواقع هذه! فرية مدهونة بزبدة الخداع، يدعوننا للنوم في أحضانها.. ذات الأنياب والمخالب، لكي نظل في أطلالها، نهيم، نبحث عن مدننا الأصلية، فلا نرى لها صورة إلا في ضوء مدنهم المسكونة بانتحار الإنسان، وغياب

المؤانسة، وضجيج الإنتاج العبثي، وفحيح المصانع، الموشك على تخريب كل شيء فوق هذه الأرض التي أنعم الله بها علينا لنعمرها... لا لننشر في أرجائها مرارة الأطماع التي تضفي بالتعاسة على كل الأرجاء.

هل نقول إن هذه الثقافة، تقف سداً منيعاً ضد ما ينادي به أصحابها من حرية وديمقراطية؟؟ فهم بهذه الثقافة يناقضون أنفسهم، ويقفون في صف الديكتاتوريات التي تسوّق الأعداء، ثم تسوّق على الأعداء مركزيتها، وذلك من أجل الاحتفاظ بالبقاء والاستمرار في التمتع بالامتيازات التي تتيحها لهم مواقعهم، انطلاقاً من ثنائية مقيتة، هيمنت على سطح الثقافة الراكدة، فأطلت بصورتها النكدة عقوداً مديدة، يتظاهر فيها أصحاب ودعاة ثقافة الواقع بانتمائهم إلى عصر الغرب، في حين أنهم في التطبيق وفي الصورة العملية يقفون في مقابل عصر الحريات والتعددية، وانتقال السلطة بسلاسة.

وفي الوقت الذي يظن الكثيرون (وبعض الظن إثم) أن مؤسسات المجتمع المدني- التي راحت العولمة السياسية والثقافية تلوح براياتها من أجل الإصلاح أو التغيير- هي مؤسسات قامت وتقوم من أجل حرية الناس والدفاع عن حقوقهم الحياتية والقانونية والمعاشية «وهي في الأصل التكويني لها كانت كذلك»، لكنها في الصورة الفوتوغرافية لها، تحولت إلى بنيات متغربة: «متأمركة» أو «متأوربة» أو تائهة بين مقتضيات الهوية والخوف. وهكذا فقد اصطفت هذه المؤسسات (في الغالب الأعم) في مواجهة تيار النهضة الذي يبني مقولاته على أسس من ثقافة الهوية المنفتحة المبصرة، ذلك التيار المتمسك بوسطية الإسلام وثقافة الأمة، ومصالحها المتجددة، ولما وقفت بعض هذه المؤسسات في أكثر من مكان الوقفة الشماء المرجوة منها، اعتدى عليها تيار ثقافة الواقع المتغلب بقوة السلطة، أو قوة اندفاع العولمة،

محاولاً محو آثار تجاوزها للواقع، أو تلعقها بأمل المستقبل المرهون بالقفز فوق حمأة وفوضى الواقع، إلى رؤية صنعت خروج هذه الأمة من أزمات واقعها على مدى القرون، بإبداعات ثقافة التحصن بالهوية الناضجة المتجددة المبصرة.



هـ- أوهام ثقافية..!

قال ابن المقفع في أدبه الصغير: «فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران» وقال الحسن رضي الله عنه: «أدركت قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما أفسد أكثر مما أصلح».

وآكد من ذلك وأبعد في المعنى والمبنى قوله تعالى جلّ من قائل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. إن هذا الذي قدمناه من حكم، يرمي إلى اعتماد العلم ونبذ الوهم؛ إذ إن الكلام الذي يقال والمصطلحات الثقافية أو الفكرية التي يشاع استعمالها إن لم تكن مستندة إلى علم وثيق وبرهان دقيق، كان تداولها واستخدامها مفسداً للفكر، ناقضاً لمصداقية الكاتب أو المتكلم، وذاهباً باحترام الكتابة والثقافة، واضعاً إياهما في جحيم الإعراض والهوان، ودافعاً بهما بقوة إلى قبور الوهم المزري بالمشهد الثقافي العام لأي شعب أو أمة. ويتجلى هذا الوضع المزري للمشهد الثقافي في عالمنا العربي والإسلامي أكثر ما يتجلى. في استخدام الكثير من المصطلحات، وفي طرح العديد من الأفكار، بدون تروٍ ولا مراجعة حقيقية، ولا تدقيق عميق في حقيقة المصطلحات والأفكار المطروحة، أي أن الأمر كله يجري بلا علم وثيق، معتمداً على النقل عن الآخر، والوهم بأن ما يطرحه الآخر علمي نزيه، وأن ما يبتغيه هو النصح ليس إلا..!.

بناءً على ما تقدم، لا بد من إيراد الأمثلة، لتتوضح صورة الوهم الذي يهيمن على مجرى الحدث الثقافي والفكري العربي والإسلامي.

١- مصطلح التطرف

لا شك عندي أن غالبية من يستعملون هذا المصطلح في كتاباتهم أو كلامهم اليومي العادي، لا يدرون ما الذي يراد من هذا المصطلح أن يُحدث في ثقافة وذهن المتلقي، وبالتالي في سلوكه الوطني العام، وفي علاقته مع الآخر من بني جلدته المشارك له في المواطنة واللغة والدين والتاريخ والآمال والآلام.

إن الغرب الذي صدّر لنا هذا المصطلح، أراد له أن يستقر أولاً في العقول والقلوب، ثم على الألسنة وأخيراً فوق القراطيس في كتابة الكاتبين «وفذلكات» المفكرين والمثقفين، وعندئذ يريدون منه أن يستوطن سلوك المواطن وطريقة تعامله مع كل من يتمسك بخصوصية الأمة وهويتها بحيث يكون الشك والريبة هما السيدان في ذلك السلوك وتلك الطريقة من التعامل؛ إذ إن التطرف في رأي المصدرين للمصطلح يطلق. ويراد منه أن يشمل كل متمسك بدينه وشعاراته ومبادئه، وإلا لماذا هذا الإصرار من وسائل إعلامهم، ومن الأبواق التي تقلدهم في ديار المسلمين على إضافة كلمة متطرف بعد إيراد اسم أي شخص إسلامي، أو أي تنظيم إسلامي مهما كان نهجه وطريقته، ولو أنك سألت أياً من الأبواق التي تردد المصطلح عن معناه ومراميه وأهدافه، لتلجلج المسؤول، وراح يدور في فراغ الكلمات والأفكار، لتخرج من أمامه بلا شيء، ولا عقلانية في المعنى، ولا منطقية في النتائج، وذلك لأن هذا المردد للمصطلح رضي لنفسه أن يكون تبعاً عبداً لا يسأل سيده عن المعاني والمرامي، وإلا كان آبقاً بعرف السيد.

٢- مصطلح الإرهاب

ما قيل عن مصطلح التطرف، يصلح أن يقال في سياق الكلام عن مصطلح

الإرهاب، ونزيد هنا: إن الذين أوجدوا المصطلح وعمموه يعرفون أهداف إطلاقه، لكنهم لم يحددوا معناه في العلن؛ وذلك عن قصد وتدبير، إذ إنهم يريدون استخدامه بمكاييل متعددة، واتجاهات متنوعة لا يفقهها سواهم، وهي مكاييل واتجاهات تناسب قدودهم ومصالحهم، وعلى المرددين والأبواق أن يأخذوها هكذا كما جاءت من الأصل، وأن يخضعوا في فهم معانيها ومراميها للنسخة الواردة وإلا كانوا مع الإرهاب.

٣- منطلق غير سديد

إن الذين يعتقدون أن كلام دولة ما أو مسطرات أقلام تائهة وتوجيهها قدرٌ مقدور منطلقين في فكرهم وكتاباتهم من هذا المنطلق، ظلموا أنفسهم كثيراً وظلموا الذين يتلقون عنهم، فالله وحده هو صاحب الأمر والنهي، وصاحب المشيئة والإرادة في هذا الكون.. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١]... يجب أن يكون كل ذلك مفهوماً وإلا فإنه الوهم الثقافي والفكري والسلوكي.. وهو بالتالي صانع الهزائم من كل نوع.. الهزائم الفكرية، الهزائم الخصوصية، الهزائم الاقتصادية، الهزائم العسكرية، الهزائم الأخلاقية، الهزائم المجتمعية والوطنية التي تخسر الأرض والكيان والإنسان.

فالله سبحانه صاحب الأمر والنهي، وكل شيء عنده بمقدار وبمواعيد يحددها خالق هذا الكون، فلا يهولن أحدٌ طول أمد الظلم، ولا يبطرن أحد سرعة الاستجابة، فكل ذلك عند صاحب الأمر حكمة وقدر مقدور.. يركن إليه أولو الألباب العاملون الفاعلون منتظرين فرج الله.. وتغيير الواقع الظالم، بعد تقديم الأسباب.